فرض في التوراة قابل للتحقيق

د. حمدي عبدالعال*

تمهيـــد

إنه مهما قيل في التوراة وحولها، فستظل هناك حقيقتان ماثلتان أمامنا :

حقيقة خاصة، ـ على الأقل ـ بأتباع الأديان الثلاثة : اليهود، والمسيحيون، والمسلمون، وهي أن هناك توراة تلقاها موسى عليه السلام عن ربه.

وحقيقة أخرى ـ يفرضها الواقع : أن تلك التوراة التي بين أيدينا الآن، كتاب مقدس لملايين الناس من البشر. والجميع وإن كانوا يسلمون بهذه الحقيقة، الا أنهم يختلفون في الأصل الذى تعود إليه هذه التوراة، فمنهم من يسلم بصلتها بالوحى، ومنهم من ينكر هذه الصلة.

والذين يقولون بصلتها بالوحى فإنهم ينقسمون في مدى هذه الصلة ونوعها. بين الذين يذهبون إلى أنها امتداد في الجوهر والمضمون لتوراة موسى عليه السلام، وان كان فيها من تغيير، فإنما هو تغيير شكلي أملته ظروف الجمع والنقل والترجمة، لا يؤثر في عصمتها وقدسيتها، وبين الذين يذهبون إلى أن هذه التوراة التي بين أيدينا، لا تعدو أن تكون صورة، مختلفة الألوان، والظلال، والسمات، أصابها تشويه في الشكل والمضمون، أفقدها صلتها بتوراة موسى وأزال قدسيتها والثقة بها[1].

وهؤلاء الذين يقولون بصلة ما لهذه التوراة بالوحي ـ واهية كانت هذه الصلة أم راسخة ـ يتفقون في جملتهم على أن نسخة عزرا الكاهن اليهودي المتوفى سنة ٤٤٤ ق.م، كانت من أهم النسخ التي اعتمدت عليها المجامع اليهودية في صياغة هذه التوراة التي بين أيدينا وأعطتها قانونيتها.

فالاعتقاد السائد عند اليهود، أنه هو الذى جمع أسفار التوراة ونظمها، وأنه هو الذى حمل إلى بلادهم حروف الأبجدية الآرامية التي اشتهرت بالخط الآشوري،

---

* حمدي عبدالعال: أستاذ مساعد بكلية الشريعة/ جامعة الكويت

١ ـ انظر : الكتاب المقدس في الميزان : الفصل الأول، والثالث والسابع، إدواردج. يونج، ترجمة إلياس مقار ـ دار الثقافة المسيحية طـ١ القاهرة.

والتي نشأت منها الحروف العبرية في آخر تطور لها[٢].

وإذا كنا، لأسباب علمية ودينية، مع الذين يعتقدون باختلاف كبير بين توراة اليوم وتوراة الوحي، وإن كنا كذلك مع الذين يرجحون صلة هذه التوراة بعزرا، إلا أنه يبقى أمامنا تساؤلات هامة، لا زالت معلقة لا تجد لها إجابات حاسمة حتى الآن، حول نسخة عزرا وقيمتها العلمية والدينية :

فهل هي مثلا : نفس توراة موسى أو نسخة منها؟

وإذا كانت نسخة من توراة موسى، فمن الناسخ؟ أهو عزرا نفسه، أو مي نسخة تلقاها عزرا عن غيره؟

وإذا افترضنا أن عزرا هو الناسخ، فما مقدار ضبطه ودقته في النسخ؟ وهل تمت مراجعة نسخته على الأصل؟

وإذا كان فمن الذى راجعها؟ هل كانت مطابقة للأصل؟ أو كان فيها اختلاف بالنقص أو الزيادة عن الأصل؟

وإذا كان قد حدث فيها اختلاف، فما مقداره ونوعه؟

ثم إذا سلمنا بافتراض أن عزرا كان ناسخا جيدا للتوراة، فعلى أي صورة وهيئة كانت التوراة التي نقل عنها؟ أكانت مجمعة في مجلد واحد، أم كانت أوراقا أو شيئا مفرقا؟

وإذا كانت شيئا مفرقا، فمن الذى قام بتجميعها وترتيب صحائفها وأسفارها؟ أعزرا نفسه أم غيره؟

وإذا كان عزرا هو الذي قام بتجميعها وترتيبها، فبأي سلطان وعلى أي أساس كان عمله؟

كل هذه التساؤلات وغيرها، على أهميتها وخطورتها وجديتها بالنسبة لكتاب مقدس، فإننا لا نجد في أسفار الكتاب المقدس ولا عند علماء الأديان، خصوصا من اليهود والمسيحيين، إجابة حاسمة أو شافية على شيء منها، مما يفتح أمامنا المجال لطرح تساؤل آخر، وهو : أليس من الممكن أن تكون التوراة التي بين أيدينا الآن، لا هي توراة موسى ولا صورة أو نسخة لها، وإنما هي صورة لأسفار ألفها عزرا في

---

٢ ـ انظر : موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية ٨/ ١٤٠ ـ زكي شنوده ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٣، والتلمود تاريخه وتعاليمه، ص٣١ ـ ظفر الله خان ـ دار النفائس ط٢ ١٩٧٢م. وانظر كذلك ابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل» جـ١ ص١٩٧.

تاريخ بني إسرائيل، اعتمد في كتابتها على مصادر ومراجع شتى، لم يكن منها توراة موسى عليه السلام كمرجع مستقل؟؟ وإذا كنا قد أخفقنا في العثور لدى أسفار اليهود أو علماء الاديان على إجابات شافيه أو مقنعة على تساؤلاتنا السابقة رغم جوهريتها وأهميتها، فهل يمكن أن نجد في نصوص العهد القديم إجابة مباشرة أو غير مباشرة عن هذا التساؤل الذى طرحناه أخيرا؟

وهكذا كانت بداية البحث في أسفار التوراة والأسفار اللاحقة لها، على ضوء هذا الفرض أو الافتراض الجديد، وبقراءة متأنية لتلك النصوص وتحليلها وعلى ضوء هذا الافتراض، أسفرت النصوص عما يمكن أن يكون أكثر الاحتمالات قبولا في طبيعة نسخة عزرا باعتبارها الأصل الذى تعود إليه التوراة القائمة الآن، وما يمكن أن يكون فرضا علميا قابلا للتحقيق، وكان عليَّ أن أعرض هذا الفرض الذي لو صح علميا، لأصبح لدينا معيارا علميا مقبولا، ليس في نقد التوراة التي بين أيدينا الآن فحسب، وإنما في مسائل كثيرة لا تزال مثار جدل ونقاش بين علماء الأديان، بل ربما فتح باب النظر والنقاش في مسلمات كثيرة.

وقد اقتضى منهج تقديم هذا الفرض تقسيم البحث على النحو التالي :

أولا : تأريخ لتوراة موسى عليه السلام ومصيرها الذى آلت اليه، كمقدمة ضرورية للفرض الذى نطرحه في توراة عزرا.

ثانيا : الفرض الذى نطرحه في توراة عزرا ومسوغات هذا الفرض.

وأخيرا الضوابط التي يجب مراعاتها لمن يريد تحقيق هذا الفرض.

والله أسأل الهداية والتوفيق والسداد.

- ١ -
فقـد تـوراة موسى عليه السلام

إن من أهم العوامل التي تحفظ أي أثر مكتوب على صورته الأولى عاملان :

الأول : قدسية هذا الأثر وإجلاله، وتعلق الغرض به والحاجة إليه باستمرار.
الثاني : تواتره بين الناس استظهاراً وكتابة، أفقيا ورأسيا.

وهذا ما لم يتوافر للتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، فأي باحث عادي أو مدقق في سيرة التوراة منذ أبلغها موسى عليه السلام وصلتها بالتوراة التي بين أيدينا، الآن ـ والمزعوم أنها هي توراة موسى عليه السلام ـ ينتهي الى نتيجة مؤكدة، سندها نصوص التوراة التي بين أيدينا وأسفار اليهود الأخرى، إن الشبه ضئيل جدا بين التوراة في وضعها الأول، والوضع الذي آلت إليه، إما بفعل عوادي الزمن والأحداث والنكبات التي تعرضت لها، أو بفضل الإهمال والنسيان والجحود من أهلها، الذين لم يشتهر أحد منهم في الماضي وحتى الآن أنه من حفظة التوراة، كذلك فإن تاريخ اليهود، كما تنطق به أسفارهم تاريخ يغلب عليه الفساد والإلحاد والتمرد والانحلال الديني والخلقي، وإهمال الشريعة والاستهتار بأحكامها ومواثيقها.

وهكذا فعامل الحفظ لم يتوافر للتوراة طوال تاريخها، وهذا أمر مجمع عليه، ولم يرد خلافه من طريق صحيح أو غير صحيح، ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها: أنه لم يكن من مقاييس التدين أو من القربات التي يتقرب بها اليهودي الصالح إلى الله: حفظ التوراة استظهارا، وليس هناك حث من النصوص أو من الدعاة أنفسهم، على شيء من ذلك، وما ورد من الدعوة إلى الحفظ كان بمعنى حفظ النفس عن مخالفة شريعة التوراة وأحكام الله.

كذلك لم تكن التوراة في متناول الناس أو ميسر لهم تداولها والاطلاع عليها في كل وقت، كما هو شأن المسلمين مع القرآن منذ نزل، وإنما كان شأن اليهود معها على خلاف ذلك، حيث لم يكن لهم، بنصّ التوراة نفسها ـ الاطلاع عليها أو الاستماع إليها في كل حين، حيث تذكر التوراة التي بين أيدينا الآن، أن موسى عليه السلام، بعد أن فرغ من كتابتها، قرأها عليهم ثم سلمها إلى الأحبار الموكول إليهم حفظها

بمعنى صيانتها، وحفظها في التابوت المقدس، وذلك بتكليف من الله تعالى، بعيدا عن العامة من اليهود، وأن من يقترب من مكان حفظها في وقت غير الوقت الذى ترتبه الكهنة يحكم عليه بالموت ويقتل على الفور، على أن يقرأها الكهنة على الناس كل سبع سنين في عيد لهم يسمى عيد المظال، وهذه مقتطفات من نصوص التوراة في هذا الشأن :

«وقال الرب لهارون : «هأنذا قد أعطيتك حراسة رقائعي مع جميع أقداس بني أسرائيل لك، أعطيتها حق مسحة، ولبنيك فريضة وهدية . . . »[٣]، : «فتعطى اللاويين، لهارون ولبنيه، إنهم موهوبون له هبة من عند بني إسرائيل، وتوكل هارون وبنيه فيحرسون كهنوتهم، والأجنبي الذي يقترب يقتل، وكلم الرب موسى قائلا : وها إنى قد أخذت اللاويين من بني إسرائيل، فيكون اللاويون لي.»[٤]، « . . . فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلا : خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت، عهد الرب إلهكم، ليكون هناك شاهدا عليكم، لأني عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هوذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحري بعد موتي!»[٥].

ثم يبين لهم موسى، بنص التوراة، النظام والشروط التى يجب أن تتحقق لتلاوة التوراة عليهم أو الاستماع إليها :-

«وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب . . وأمرهم موسى قائلا : في نهاية السبع سنين، في ميعاد سنة الإبراء، في عيد المظال حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم»[٦].

إلا أن هذه الشروط التى أشار إليها النص لم تتحقق جل أيام بني اسرائيل، مما يعني أنهم لم يتح لهم أن يسمعوها كل سبع سنوات كما أمرهم موسى عليه السلام، وأنه لم يتح لأحد من عامة اليهود حفظها فضلا عن الاحتفاظ بنسخة منها، وحتى فرصة

---

٣ - سفر العدد - ١٨/٨

٤ - السابق - ٣/٩ - ١٢

٥ - سفر التثنية - ٣١/٢٤ - ٢٧

٦ - سفر التثنية - ٣١/٩ - ١١

استماع الناس لها كل سبع سنوات كما أوصى ـ موسى عليه السلام ـ لم تتح لهم إلا في الطبقة الأولى، وربما مرة واحدة على الأكثر، بعد موسى عليه السلام، فلما انقرضت تلك الطبقة تغير الحال ببنى إسرائيل، وأهملت وصية موسى عليه السلام بسبب فسادهم، وكثرة عصيانهم، وارتدادهم عن الشريعة أصلا، وكل هذا بنص أسفارهم، وكما نبأ موسى في النص السابق بعدم أمانتهم في حفظ كلام الله أو العمل به.

وظل حال بني إسرائيل هكذا بين الإسلام والكفر والإلحاد والزندقة وإهمال العمل بالشريعة والتوراة التي لم يرد ذكر لها في أسفارهم إلى عهد سليمان عليه السلام الذى بنى الهيكل المقدس كمعبد لليهود ومقرا لتابوت العهد والكتاب المقدس وأقداسهم الأخرى، ولكنه حين فتح التابوت لم يجد فيه إلا لوحي الشهادة التى كتب فيهما موسى عليه السلام الوصايا العشر، أما التوراة فلم يرد عنها ذكر في هذا الحدث الذى يعتبر من أهم الأحداث وأقدسها في التاريخ اليهودي كله، وذلك بنص أسفارهم! أما عن محتوى اللوحين فتقول التوراة: إن موسى عليه السلام قال:

«.. قال لي الرب: انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين، واصعد إليّ إلى الجبل، واصنع لك تابوتا من خشب، فاكتب على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما، وتضعهما في التابوت، فصنعت تابوتا من خشب السنط، ونحت لوحين من حجر مثل الأولين، وصعدت إلى الجبل واللوحان في يدي، فكتب على اللوحين مثل الكتابة الأولى الكلمات العشر التى كلمكم بها الرب في الجبل من وسط النار في يوم الاجتماع، وأعطاني الرب إياها، ثم انصرفت ونزلت من الجبل، ووضعت اللوحين في التابوت الذي صنعت، فكانا هناك كما أمرني الرب... في ذلك الوقت أفرز الرب سبط لاوي، ليحملوا تابوت عهد الرب، ولكي يقفوا أمام الرب، ليخدموا ويباركوا إلى هذا اليوم..»[٧].

وأما عن تلك الكلمات العشر فتقول التوراة:

«ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم: اسمع يا إسرائيل الفرائض والأحكام التي أتكلم بها في مسامعكم اليوم، وتعلموها، واحترزوا لتعلموها.

---

٧ ـ سفر التثنية ـ ١٠/١ ـ ٨

الرب إلهنا قطع معنا عهدا في حوريب، ليس مع أبائنا قطع الرب هذا العهد، بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعا أحياء، وجها لوجه تكلم الرب معنا في الجبل من وسط النار، أنا كنت واقفا بين الرب وبينكم في ذلك الوقت، لكي أخبركم بكلام الرب، لأنكم خفتم من أجل النار، ولم تصعدوا إلى الجبل. فقال: أنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. **لا تصنع لك تمثالا منحوتا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض.** لا تسجد لهم، ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، وفي الجيل الثالث، والرابع، من الذين يبغضونني، وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبيّ وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا، لأن الرب لا يبريء من نطق باسمه باطلا. احفظ يوم السبت لتقدسه كما أوصاك الرب إلهك، ستة أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك، وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك، لا تعمل فيه عملا ما أنت وابنك وأبتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذى في أبوابك، لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك. واذكر أنك كنت عبدا في أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة، وذراع ممدودة، لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت. أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك، لكي تطول أيامك، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل، ولا تزن، ولا تسرق، ولا تشهد على قريبك، شهادة زور، ولا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك، ولا حقله، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا كل ما لقريبك.

هذه الكلمات كلم بها الرب كل جماعتكم في الجبل من وسط النار والسحاب والضباب، وصوت عظيم، ولم يزد، وكتبها على لوحين من حجر وأعطاني إياها. .[٨]

وهنا ملاحظة تجدر الإشارة إليها، وهو أن سفر التثنية يتكلم عن عهد آخر غير هذا العهد، بمعنى أن الله أعطى لموسى عليه السلام عهدين لا عهداً واحداً، وإن كان السفر لم يشر إلى شكل العهد الثانى، ولا المادة التي كتب عليها، ولا مصيره، فقد جاء آخر الإصحاح/ ٢٨ قوله، ـ بعد وصايا وأحكام كثيرة أوصى بها موسى قومه ـ : «هذه هي كلمات العهد الذي أمر الرب موسى أن يقطعه مع بني إسرائيل في أرض موآب، فضلا عن العهد الذي قطعه معهم في حوريب».

---

٨ ـ التثنية ـ ١/٥ ـ ٢٢

هذا ما قالته التوراة عن التابوت المقدس وما احتواه من اللوحين وما كتب فيهما.

وأما عن شأن سليمان عليه السلام مع التابوت والتوراة، فنذكر فيه ما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني على طوله، ليتضح لنا مقدار ما كان يحويه الهيكل من ذهب وفضة، مما جعله محط أنظار الطامعين، وما حواه من تماثيل، مخالفا بذلك العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل في التوراة :

«وشرع سليمان في بناء بيت الرب في أورشليم في جبل المريا، حيث تراءى لداود أبيه، حيث هيأ داود مكانا. . وشرع في البناء في ثاني الشهر الثاني في السنة الرابعة لملكه. وهذه أسسها سليمان لبناء بيت الله. الطول بالذراع على القياس الأول ستون ذراعا، والعرض عشرون ذراعا، والرواق الذى قدام الطول حسب عرض البيت عشرون ذراعا، وارتفاعه مئة وعشرون، وغشاه من الداخل بذهب خالص، والبيت العظيم غشاه بخشب سرو، غشاه بذهب خالص، جعل عليه نخيلا وسلاسل، ورصع البيت بحجارة كريمة للجمال، والذهب ذهب فروايم. وغشى البيت أخشابه وأعتابه وحيطانه ومصاريعه بذهب، ونقش كروبيم على الحيطان. وعمل بيت قدس الأقداس، طوله حسب عرض البيت عشرون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وغشاه بذهب جيد ست مئة وزنة، وكان وزن المسامير خمسين تاقلا من ذهب، وغشى العلالي بذهب.

وعمل في بيت قدس الأقداس كروبيين صناعة الصياغة، وغشاها بذهب. وأجنحة الكروبيين طولها عشرون ذراعا، الجناح الواحد خمس أذرع، يمس حائط البيت، والجناح الآخر خمس أذرع، يمس حائط البيت، والجناح الآخر خمس أذرع، يتصل بجناح الكروب الآخر، وأجنحة هذين الكروبين منبسطة عشرون ذراعا، وهما واقفان على أرجلهما، ووجههما إلى داخل.

وعمل الحجاب من اسمانجوني وأرجو ان وقرمز وكتان، وجعل عليه كروبين، وعمل أمام البيت عمودين طولهما خمس وثلاثون ذراعا، والتاجان اللذان على رأسهما خمس أذرع، وعمل سلاسل في المحراب، وجعلها على رأس العمودين، وعمل مئة رمانة، وجعلها في السلاسل، وأوقف العمودين أمام الهيكل، واحدا على اليمين، وواحدا على اليسار، ودعا اسم الأيمن ياكين، واسم الآخر بوغر.

وعمل مذبح نحاس: طوله عشرون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وارتفاعه عشرة أذرع، وعمل البحر مسبوكا عشرة أذرع من شفته الى شفته، وكان مدورا مستديرا، وارتفاعه خمس أذرع، وخيط ثلاثون ذراعا محيط بدائرة وشبه قثاء، تحته مستديرا يحيط به على استدارته، للذراع عشر تحيط بالبحر مستديرة، والقثاء صفان قد سبكت بسبكة كان قائما على اثنى عشر ثورا، ثلاثة متجة إلى الشمال وثلاثة متجهه إلى الغرب، وثلاثة متجهة إلى الجنوب، وثلاثة منتجهة إلى الشرق، والبحر عليها من فوق، وجميع أعجازها إلى داخل، وغلظه شبر، وشفته كعمل شفة كأس بزهر سوسن، يأخذ ويسع ثلاثة ألاف بث، وعمل خمسا مراحض، وجعل خمسا عن اليمين، وخمسا عن اليسار للاغتسال فيها، وكانوا يغسلون فيها ما يقربونه محرقة، والبحر لكى يغتسل فيه الكهنة، وعمل منائر ذهب، عشر كرسهما وجعلهما في الهيكل، خمسا عن اليمين، وخمسا عن اليسار. وعمل عشر موائد، ووضعها في الهيكل، خمسا عن اليمين، وخمسا عن اليسار، وعمل مئة منضحة من ذهب، وعمل دار الكهنة، والدار العظيمة، ومصاريع الدار، وغشى مصاريعها بنحاس، وجعل البحر إلى الجانب الأيمن إلى الشرق من جهة الجنوب.

وعمل حورام: القدور، والرفوش، والمنائح. وانتهى حورام من عمل العمل الذي صنعه للملك سليمان في بيت الله. العمودين وكرتي التاجين على رأس العمودين، والشبكتين لتغطية كرتي التاجين اللذين على رأسي العمودين والرمانات الأربع مئة للشبكتين، صفي رمان للشبكة الواحدة، لتغطية كرتي التاجين اللذين على العمودين.

وعمل القواعد، وعمل المراحض على القواعد، والبحر الواحد والاثني عشر ثورا تحته والقدور والرفوش والمناشل، وكل آنيتها عملها للملك سليمان حورام أبى، لبيت الرب من نحاس مجلي، في غور الأردن، سبكها الملك في أرض الخزفي بين سكوت وصرده.

وعمل سليمان كل هذه الآنية كثيرة جدا، لأنه لم يتحقق وزن النحاس، وعمل سليمان كل الآنية التى لبيت الله، ومذبح الذهب والموائد، وعليها خبز الوجوه والمنائر. وسرجها، لتتقد حسب المرسوم أمام المحراب من ذهب خالص، والأزهار والسرج والملاقط من ذهب، وهو ذهب كامل، والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص. وباب البيت ومصاريعه الداخلية لقدس الأقداس، ومصاريع بيت الهيكل من ذهب.

وكل جميع العمل الذى عمله سليمان لبيت الرب وأدخل سليمان أقداس داود أبيه والفضة والذهب وجميع الآنية جعلها في خزائن بيت الله. وحينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل، وكل رؤوس الأسباط، ورؤساء الآباء لبنى إسرائيل إلى أورشليم، لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود هي صهيون.

فاجتمع إلى الملك جميع رجال إسرائيل في العيد الذي في الشهر السابع، وجاء جميع شيوخ إسرائيل وحمل اللاويون التابوت، وأصعدوا التابوت وخيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التى في الخيمة، أصعدها الكهنة واللاويون، والملك سليمان، وكل جماعة إسرائيل المجتمعين إليه أمام التابوت كانوا يذبحون غنما وبقرا، ومالا يحصى ولا يعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في قدس الأقداس، إلى تحت الكرويان، وكان الكرويان باسطين أجنحتهما على موضع التابوت، وظلل الكرويان التابوت وعصية من فوق، وجذبوا العصى فتراءت رؤوس العصى من التابوت أمام المحراب، ولم تر خارجا، وهى هناك إلى هذا اليوم، لم يكن في التابوت إلا اللوحان اللذان وضعهما موسى في حوريب، حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر..[٩]

هذه هى نصوصهم عن الحدث، ونحن مع هذه النصوص أمام أحد احتمالين :

إما أن تكون التوراة شيئا غير اللوحين، وهو المرجح من ظاهر النصوص التى سبق أن أوردناها من التوراة، ومعنى هذا أن التوراة قد فقدت ولم يعد لها ذكر.

وإما أن التوراة، لم تكن غير اللوحين، أو لوحا الشهادة، ومعنى هذا أن التوراة التى بين أيدينا الآن ليست هي التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام بيقين، وعلى فرض أنها اللوحان، فقد فقد التابوت بما فيه وما معه في الأحداث التي مرت بالهيكل المقدس، مقر التابوت ومقدسات اليهود قاطبة، والذي لم يأت عنه ذكر، منذ عهد سليمان وحتى «حلقيا» في عهد «يوشيا» بعد عدة قرون. وكانت هي المرة الأولى بعد موسى عليه السلام، التى تتحدث فيها الأسفار عن توراة موسى والعثور عليها على يد كاهن يدعى حلقيا.

ولكن قبل الحديث عن توراة حلقيا، علينا أن نستعرض الأحداث التى مرت

---

٩ - الإصحاح : ٣/٥

بإسرائيل وبيت المقدس، منذ عهد سليمان وحتى السبي البابلي سنة ٥٨٦ ق.م تقريبا، وبعد ظهور «حلقيا» بأكثر من مئة سنة.

فطبقا لترتيب تلك الأحداث كما أوردتها أسفارهم نرى ما يلي :

أولا : وقع انقلاب عظيم في آخر عهد سليمان عليه السلام، حيث يتحدث «سفر الملوك» عن كفر سليمان وإلحاده بترغيب من نسائه حتى عبد الأصنام، وبني لها المعابد، فيقول: «. . . وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت آلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين، على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال من الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر أن يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها، فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقا. .»[١٠].

وهكذا لم ينقض عهد سليمان إلا وقد انقلب سليمان، كما تزعم أسفارهم، على عقبيه، وانكفأ على الإلحاد والكفر. . فإذا آل أمره ـ وهو الذي بنى الهيكل المقدس ـ إلى ما آل اليه، فأي غرض له في التوراة وحفظها؟! بل إننا لا نجد إشارة واحدة فيما وجهه الله إليه من لوم ووعيد تشير إليه التوراة، وكان الظن ـ لو كانت مما يدين الله بها شعب إسرائيل في ذلك الوقت أن يكون أول ما يوجهه الله إلى سليمان من لوم: هو هجر العمل بالتوراة والخروج عن أحكامها!

ثانيا :

لم يكد يقضي سليمان حتى انقسمت الدولة التي أسسها، بين ولديه : «يربعام» و «رحبعام»، إلى دولتين، لم يجتمعا على شيء إلا اجتماعهما على الكفر والإلحاد وعبادة الأوثان، حتى إنه في عهد منسّي الذي تولى ملك يهوذا من سنة ٦٩٩

---

١٠ ـ سفر الملوك الأول ـ ١١/٤ ـ ١١

إلى سنة ٦٤٤ ق.م أقيمت الأصنام ونُصُبُها في بيت المقدس، وبُنيت لها المذابح التي تقدم القرابين عليها[١١]، وظلت الدولتان على الكفر والفسوق ثلاثة قرون تقريبا، حتى زالتا بيد «بختنصر» ملك بابل، وتشتت الأسرائيليون في الشعوب الوثنية الأخرى، وحتى تلك الفترة: أي فترة قيام الدولتين، فقد نهب بيت المقدس بل ودمر تماما أكثر من مرة على يد المصريين، ثم على يد اليهود أنفسهم، عندما هزمت دولة إسرائيل في الشمال ـ وكانت تعبد «العجل» ـ دولة يهوذا في الجنوب، وأزالت أي أثر لامتياز دينى لها بهدم بيت المقدس الذى كان في حوزتها، ثم كان التدمير الشامل الساحق على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م، الذي أزال الهيكل وكل أثر له من الوجود، كما أزال معه أورشليم ومعها اليهود كدولة وكشعب له هوية سياسية مستقلة، وكان هذا التدمير، الذي لم تقم لليهود بعده دولة حتى سنة ١٩٤٨م، وعن هذا التدمير وشموله وأسبابه ونتائجه يحدثنا سفر أخبار الأيام الثاني فيقول :

«وملك ـ أي نبوخذ ناصر، ملك بابل ـ صدقيا على يهوذا وأورشليم. كان صدقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك، وعمل الشر في عينى الرب إلهه ولم يتواضع أمام إرميا النبى من فم الرب، وتمرد أيضا على الملك نبوخذ ناصر... حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجسات الأمم، ونجسوا بيت الرب الذى قدسه في أورشليم.. فكانوا يهزؤون برسل الله، ورذلوا كلامه، وتهاونوا بأنبيائه، حتى ثار غضب الرب...

فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف في بيت مقدسهم، ولم يشفق على فتى أو عذراء، ولا على شيخ أو أشيب، بل دفع الجميع بيده وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة، وخزائن بيت الرب، وخزائن الملك ورؤسائه، أتى بها جميعها إلى بابل، وأحرقوا بيت الله، وهدموا سور أورشليم، وأحرقوا جميع قصورها بالنار، فكانوا له عبيدا»[١٢].

وقبيل هذا التدمير الكامل والشتات والسبى ببضع سنين، وبعد قريب من ألف عام من نزول التوراة على موسى عليه السلام، تولى ملك يهوذا يوشان أمون بن منسي ـ وسنه ثماني سنوات ـ وكان على خلاف أبيه وجده، حيث تاب عن كفرهما

---

١١ ـ انظر سفر الملوك الثانى/ ٢١

١٢ ـ ١١/٣٦ ـ ٢٠

وشركهما، وبعد سبعة عشر عاما من ملكه، لم يرد فيها ذكر للتوراة، ولم يدع أحد أنه سمع بها أو رآها، ولم يشر إليها أحد في عبادة أو تشريع أو موعظة، فجأة يعلن كاهن يدعى «حلقيا» أنه عثر على أسفار موسى في هيكلهم المقدس، وعلينا الآن عرض هذا الحدث كما تصوره أسفارهم قبل أن نعقب عليه أو نستخلص ما يؤدي إليه من نتائج :

يقول سفر الملوك الثاني : (٢٢/٣ ـ ١٦)

«وفي السنة الثامنة عشرة للملك يوشيا، أرسل الملك شاخان بن أصليا بن مشلام الكاتب، إلى بيت الرب قائلا : اصعد إلى حلقيا الكاهن العظيم فيحسب الفضة المدخلة إلى بيت الرب التي جمعها حارسو الباب من الشعب، فيدفعوها ليد عاملي الشغل الموكلين ببيت الرب، ويدفعوها إلى عاملي الشغل الذي في بيت الرب لترميم ثلم البيت. .

فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب: قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب، وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه.

وجاء شافان الكاتب إلى الملك، ورد على الملك جوابا، وقال : قد أفرغ عبيدك الفضة الموجودة في البيت، ودفعوها إلى يد عاملي الشغل وكلاء بيت الرب، وأخبر شافان الكاتب الملك قائلا : قد أعطاني حلقيا الكاهن سفرا، وقرأه شافان أمام الملك، فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه، وأمر الملك حلقيا الكاهن، وأخيقام بن شافان، وعكبور بن ميخا، وشافان الكاتب، وعايا عبد الملك قائلا : اذهبوا اسألوا الرب لأجلي، ولأجل الشعب، ولأجل كل يهوذا، من جهة كلام هذا السفر الذي وجد. . فذهب حلقيا الكاهن، وأخيقام، وعكبور، وشافان، وعايا، إلى خلدة النبية. . ـ وهي ساكنة في أورشليم في القسم الثاني وكلموها، فقالت لهم : هكذا قال الرب إله إسرائيل، قولوا للرجل الذي أرسلكم إليَّ : هكذا قال الرب. . »

وتأتي نفس القصة مرة أخرى في سفر أخبار الأيام الثاني (٣٣/٢١، ٢٥، ٣٤/١ ـ ٢٥) ـ ولكن بشيء من التفصيل، هكذا :

«كان أمون بن اثنتين وعشرين سنة حين ملك، وملك سنتين في أورشليم، وعمل الشرَّ في عيني الرب كما عمل منسى أبوه، وذبح أمون لجميع التماثيل التي عمل منسى أبوه وعبدها، بل ازداد إثما، وفتن عليه عبيده، وقتلوه في بيته، وقتل

شعب الأرض جميع الفاتنين على الملك آمون، وملك شعب الأرض يوشا ابنه عوضا عنه.

كان يوشا ابن ثماني سنين حين ملك، وملك إحدى وثلاثين سنة في أورشليم، وعمل المستقيم في عيني الرب، وسار في طرق داود أبيه، ولم يحد يمينا ولا شمالا.

وفي السنة الثامنة من ملكه ـ إذ كان بعد فتى ـ ابتدأ يطلب إله داود أبيه، وفي السنة الثانية عشرة ابتدأ يطهر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسواري والتماثيل والمسبوكات، وهدموا أمامه مذابح البعليم، وتماثيل الشمس التى عليها من فوق، قطعها وكسر السوارى والتماثيل والمسبوكات، ودقها ورشها على قبور الذين ذبحوا لها، وأحرق عظام الكهنة على مذابحهم، وطهر يهوذا وأورشليم، وفي مدن منى وأفرايم وشمعون، حتى نفتالى مع خرائبها حولها، هدم المذابح والسواري، ودق التماثيل ناعما، وقطع جميع تماثيل الشمس في كل أرض إسرائيل، ثم رجع إلى أورشليم، وفي السنة الثامنة عشرة من ملكه ـ بعد أن طهر الأرض والبيت ـ أرسل شافان بن أصليا، ومعيا رئيس المدينة، ويوآخ بن يوآحاز المسجل، لأجل ترميم بيت الرب إلهه، فجاؤوا إلى حلقيا الكاهن العظيم، وأعطوه الفضة المدخلة إلى بيت الله التي جمعها اللاويون حارسوا الباب من منسى وأفرايم، ومن كل بقية اسرائيل، ومن كل يهوذا وبنيامين، ثم رجعوا إلى أورشليم ودفعوها لأيدي عاملي الشغل الموكلين في بيت الرب، فدفعوها لعاملي الشغل الذين كانوا يعملون في بيت الرجل لأجل إصلاح البيت وترميمه، وأعطوها للنجارين والبنائين، ليشتروا حجارة منحوته وأخشابا للوصل، لأجل تسقيف البيوت التي أخربها ملوك يهوذا..

وعند إخراجهم الفضة المدخلة إلى بيت الرب وجد حلقيا الكاهن سفر شريعة الرب بيد موسى.

فأجاب حلقيا وقال لشافان الكاتب: قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب، وسلم حلقيا السفر إلى شافان، فجاء شافان بالسفر إلى الملك، وردّ إلى الملك جوابا قائلا: كل ما أسلم ليد عبيدك هم يفعلونه، وقد أفرغوا الفضة الموجودة في بيت الرب، ودفعوها ليد الوكلاء، ويد عاملي الشغل، وأخبر شافان الكاتب الملك قائلا: قد أعطاني حلقيا الكاهن سفرا، وقرأه شافان أمام الملك، فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه وأمر الملك حلقيا الكاهن، وأخيقام بن شافان، وعكبون بن ميخا، وشافان الكاتب، وعايا عبد الملك، قائلا: اذهبوا اسألوا الرب لأجلي ولأجل الشعب، ومن أجل من بقي من إسرائيل ويهوذا عن كلام السفر الذى وجد، لأنه

عظيم غضب الرب الذى انسكب علينا، من أجل أن آباءنا لم يحفظوا كلام الرب، ليصلوا حسب كل ما هو مكتوب في هذا السفر، فذهب حلقيا والذين أمرهم الملك إلى خلوة النبية امرأة لوم.. حارس الثياب، وهى ساكنة في أورشليم في القسم الثانى، وكلموها هكذا، فقالت لهم : هكذا قال الرب إله إسرائيل، قولوا للرجل الذى أرسلكم إلىَّ : هكذا قال الرب: هأنذا جالب شرا على هذا الموضع، وعلى مكانه جميع اللعنات المكتوبة في السفر الذي قرأوه أمام ملك يهوذا من أجل أنهم تركونى وأوقدوا لآلهة أخرى، لكي يغيظوني بكل أعمال أيديهم، وينسكب غضبي على هذا الموضع ولا ينطفيء...»

هذا هو الحدث كما تعرضه أسفارهم، والذي يمكن من تحليل نصوصه استخراج النتائج اللازمة والكافية على النحو الآتي :

أولا: ظهرت توراة حلقيا في وقت كان الشعب اليهودي غارقا فيه إلى أذنيه وعينيه في عبادة الأوثان، يعمه الإلحاد، والفساد يملأ قلبه، ويستولي على عقله، ويغطي الأرض التي يعيش عليها النصب والمعابد التي يمارس فيها الطقوس وعبادة الأوثان التي أقامها، ويقيم المذابح لتقديم القرابين لها، ولا يخفى طول الزمن والحقب الذي يستغرقه التحول الديني لشعب من الشعوب، في تغيير رموزه وهياكله وطقوسه حتى يصبح عقيدة مستقرة في وجدان الشعب وسلوكه، مما يعني أن الإلحاد والشرك امتدت جذوره في تاريخ اليهود، وأصبح صبغة وسمة لهذا التاريخ.

ثانيا: من السهل التسليم بهذه الحقيقة، إذا علمنا أن إلحاد اليهودي وكفره لا يعني بالضرورة فقد هويته اليهودية أو الإسرائيلية، فالناظر في أسفارهم ووثائقهم يميز فيها نغمة رئيسة، وهي أن الانتماء الحقيقي لليهودي لا يقوم على أساس ديني، وإنما في المقام الأول ـ على أساس عنصري، فالعقيدة الرئيسة التي تعتبر النواة لفكر اليهودي ونفسيته وأخلاقه، هي إيمانه بنسبه العرقي المميز ونسبته الخاصة القدرية إلى الله تعالى في اختياره من بين الشعوب، أو دون سائر البشر، أن يكون شعبه المختار، وتلك هي النغمة البارزة في شخصية اليهودي والتي يشير إليها القرآن بوضوح في حكايته أقوالهم : ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[13] ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[14] ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[15].

---

١٣ ـ المائدة / ١٨ ١٤ ـ آل عمران / ٧٥ ١٥ ـ البقـــرة / ٨٠

وهذا هو التفسير المنطقي، لما نجده من تناقض ظاهر في تاريخهم الديني، كما تتحدث به أسفاره، وما يقصه القرآن من أخبارهم، من حيث تناقضهم العقدي والأخلاقي، ومن حيث مفهوم الفضيلة والرذيلة والحق والباطل عندهم.

ولمزيد من توضيح ما نقصد إليه في هذه المسألة، فما علينا إلا أن نقارن بين المسلم واليهودي من حيث علاقته بالدين، فالمسلم يكتسب تسميته وهويته الدينية بإقراره قولا وعملا، بكل ما ثبت من دينه بالضرورة، وأي جحود أو إنكار شيء من ذلك، يفقده هذه التسمية، ويسقط انتسابه إلى الإسلام والمسلمين.

أما اليهودى: فإنه إذا فعل كل ذلك أو بعضه، فإنه لا يفقد لقبه ولا هويته ولا صلته بشعبه. ومن هنا فإن إعترافه بالتوراة أو إنكارها، والالتزام بأحكامها أو إهمال العمل بها، كل ذلك لا يشكل خطرا على انتمائه وهويته، فحاجة المسلم إلى القرآن في اكتساب اسمه وعصمته وانتمائه، تختلف عن حاجة اليهودي إلى التوراة في اكتساب هذه الأمور.

وإذن فليس هناك دافع قوي وغرض ملح عند اليهودي في حفظ التوراة وصيانتها من الضياع أو التحريف.

ثالثا: جاء «يوشيا»، كما رأينا، بعد عصر طويل من الإلحاد والشرك، وكان البيت المقدس مكتظا بالأوثان والأنصاب، جاء ليتزعم ثورة إصلاحية دينية، قضى ثماني سنوات منها في الهدم والتطهير، ولا شك ـ لملك مثله ـ أن يكون أول ما يبدأ به هو تطهير البيت المقدس، مستقر أقداس اليهود، وهيكلهم المقدس، وقدس أقداسهم، وهو تابوت العهد والتوراة، حتى يتم له غرضه في الإصلاح والاستقرار الدينى، ولكن مع شدة حرصه وعظيم جهده لم يوفق في الثعور على أثر مكتوب أو محفوظ للتوراة، سواء داخل البيت المقدس، الذي تشير النصوص التي أوردناها إلى نهبه وتخريبه على يد الأسرائيليين أنفسهم، أو خارج هذا البيت، وقد كانت كل أرض إسرائيل طبقا لنصوصهم مباءة للفساد والأوثان والإلحاد.

رابعا: تظهر النصوص بوضوح تشكك الملك وكاتبه في صدق «حلقيا» أو في قيمة ما عثر عليه، ويكفي دلالة على هذا، تلك الطريقة التي أبلغ بها «شافان» الكاتب خبرها إلى الملك، فمما يتفق ومنطق الأمور، أن يبدأ «شافان» تقريره إلى الملك بالحديث عن أجل الأمور وأخطرها وأعظمها وفاء بأغراض الملك، واهتمامه

بالإصلاح الديني لشعبه، فيزف إليه بشرى العثور على التوراة، ولكن على العكس من ذلك نراه يؤخر الكلام عنها ليتحدث عن أمور أقل أهمية بكثير من هذا الحدث الجليل، بل إن في طريقة تعبيره عن الحدث ما يوحي إيحاء قويا عن قلة اهتمامه أو تشككه في قيمة ما عثر عليه «حلقيا»، وكأنه اعتبر الأمر حدثا من صنع حماس «حلقيا» لما يتحمس له الملك، وليس من صنع الواقع، فيقول للملك في فتور ظاهر: «قد أعطاني حلقيا سفرا»، وكذلك الملك، فإنه ورغم الانفعال الذى استقبل به السفر، إلا أنه لم تغب عن ذهنه جدوى القيمة العلمية والعملية لتلك الوثيقة وحاجتها إلى تزكية تكسبها احتراما وقبولا لدى الشعب، فنجده يسعى إلى مباركة خلدة النبية لها، ليقينه أن هذه الوثيقة في حاجة إلى ضمان تعتمد عليه في شرعيتها، وفي هذا أيضا ما يدل على ضعف ثقة الملك برواية «حلقيا».

خامسا: لم تشهد النبية أو تقول صراحة، بأن هذا الذي وجده «حلقيا»، هو توراة موسى، وإنما لجأت إلى التشبيه حين قالت: «وهكذا قال الرب»، فضلا عن أن التوراة اسم له وزنه وقيمته الدينية أطلقه موسى عليه السلام على ما كتبه واستودعه اللاويين لحفظه وصيانته، فأحرى «بحلقيا»، و «شافان»، والملك، «وخلدة» النبية، لو كان ما عثر عليه «حلقيا» هو التوراة أن يشيروا إليها جميعا باسمها.

سادسا: واضح لنا من نصوص التوراة الآن، الحجم الذى هي عليه، وهو لا يقاس به، ما عثر عليه «حلقيا»، والذي قريء مرتين على الأقل في يوم واحد، فقد قرأه «شافان»، مرة مع «حلقيا»، ومرة أخرى أمام الملك، وإذا اعتبرنا أن «حلقيا» أعطاها «شافان» يوم عثوره عليها، وأن النبية قرأتها في نفس اليوم، تكون توراة «حلقيا» قد قرئت أربع مرات على فترات متباعدة في يوم واحد، مما يعطينا فكرة واضحة عن حجمها وعدد صفحاتها بالمقارنة بتوراة اليوم والتي تنسب أصولها الى التوراة التي كتبها عزرا، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضا تعبير شافان عنها بالإفراد والتنكير حين قال للملك: «قد أعطاني حلقيا الكاهن سفرا»!، ومن هذه المقارنة، بين حجم التوراة التي بين أيدينا الآن، وبين توراة حلقيا يتأكد لنا بما لا يدع مجالا للشك، اختلاف النسختين.

سابعا: سير الأحداث ـ كما تعبر عنه النصوص ـ مدعاة للشك في صدق حلقيا، ويزعزع الثقة في شهادته، إذا أخذنا في الاعتبار طبقا لنصوصهم أن:

١ ـ البيت المقدس ـ وهو مقر التابوت المقدس والتوراة ـ نُهِبَ وخُرِّب، بل ودمر تماما أكثر من مرة.

٢ ـ لم يرد ـ على الأقل منذ داود عليه السلام ـ ذكر للتوراة، وكان الغالب على تاريخ اليهود كفرهم وإلحادهم، وعبادة الأوثان، وشيوع الفسق والفجور والعصيان.
٣ ـ البيت المقدس، كان معظم الوقت. بيتا للأصنام وسدنتها، وكان بعض الكهنة ممن ظلوا على الإيمان يرتادون البيت، ولم يعلن أحد طوال هذا الزمن، سواء من المرتدين، أو ممن من بقي على الإيمان ـ وهم قلة ـ شيئا عن التوراة، وكلا الطرفين كان لا شك في غاية الحرص على العثور عليها : المرتدون لإعدامها كشاهد على كفرهم وإلحادهم، والمؤمنون لتعزيز موقفهم وإدانة المنحرفين.
٤ ـ ادعى حلقيا أنه عثر على التوراة في بيت الرب، مع أن البيت كان تحت سلطان يوشيا الملك المتحمس للإصلاح الديني، والذي طهر البيت من الأوثان ومظاهر الشرك، ولابد أنه كان من أهم أغراضه إطاعة الشريعة، فالمعقول والمتصور بداهة أن يكون أكبر همه هو العثور على التوراة في مظانها الأولى، وهو البيت المقدس، وقد ظل يبذل جهده في البحث عنها ثماني سنوات، فكيف وبأي طريقة أمكن لحلقيا العثور على ما فشل الملك وأعوانه في العثور عليه، وفي نفس البيت الذي كان محط اهتمام الجميع تخلية وتحلية؟!
٥ ـ لو سلمنا جدلا أن ما وجده «حلقيا» هو التوراة، فسيظل هذا بالمقياس العلمي خبر آحاد لا يفيد إلا الظن، فليس هناك دليل أو شاهد آخر يؤيد شهادة حلقيا.

لكل هذا فنحن فيما يتصل بتوراة حلقيا ليس أمامنا إلا الأخذ بواحد من الاحتمالات الآتية :

الاحتمال الأول : كذب حلقيا في دعواه، وربما كان ما قدمه للملك من تأليفه هو، اعتمد فيه على التراث الشعبي، ولعل الذي سوغ له هذا الكذب أمران :

الأول : عاطفته الدينية، وحماسه في مناصرة الملك، وتعضيده في الإصلاح الديني والأخلاقي للشعب.
الثاني : أن الكذب بغرض ترويج الملة ونصرتها مستحب في الفقه اليهودي.

وقد ذهب إلى هذا الرأي، أي القول بكذب حلقيا في ادعائه كثير من المدققين في علم تاريخ الأديان من علماء اليهود والنصرى[١٦].

---

١٦ ـ انظر : إظهار الحق ص٣٢٤ وما بعدها، رحمة الله الهندي، تحقيق عمر الدسوقي ـ مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء

الاحتمال الثانى : أن الرواية برمتها من الموضوعات التي حفلت بها أسفار اليهود، وليس هناك دليل علمي حاسم ينفي هذا الاحتمال، وعليه تكون التوراة قد ضاع كل آثر لها كنص مكتوب بيد موسى عليه السلام، منذ عهد سليمان عليه السلام على الأقل.

الاحتمال الثالث : أن ما عثر عليه حلقيا ليس هو التوراة، وإنما هي صحيفة بها أحكام خلقية ووصايا دينية من بقايا وصايا الأنبياء السابقين، وربما في تحليل النصوص التي أوردناها في هذا السياق ما يرجح هذا الاحتمال.

ومع ذلك فسيبقى أن صلة التوراة التي بين أيدينا أقرب ما تكون إلى توراة عزرا وأبعد ما تكون عن سفر حلقيا.

ـ ٢ ـ

تـــوراة عـــــزرا
والفـــــرض فيها

ها قد انتهت بنا الأسفار إلى نتيجة واضحة، وهي اختفاء توراة موسى، أو على الأقل شرذمتها إلى جذاذات وقصاصات ألقت بها ريح عاصف وسط شعب غير أمين عليها، أخذ منها أو أضاف عليها ما يتفق وهواه ويحقق أغراضه، كما مهدت لنا تلك الأسفار، الطريق أمام الغرض الذي نطرحه في المصادر التي اعتمد عليها عزرا في كتابة تاريخه، الذي حوله إلى توراة يعتبرها كثير من العلماء، النسخة الأصلية للتوراة التي بين أيدينا الآن.

وعزرا، كما ورد في سفره، هو :

«عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا بن شلوم بن صادون بن أضبطوب ـ بن أمريا بن عزريا بن مرايوت بن رحبا بن عزى بن بقى ابن أيشوع بن فيجياس بن العازارا بن هارون الكاهن الرأس.

عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر في شريعة موسى التي أعطاها الرب إله إسرائيل، وأعطاه الملك حسب يد الرب إلهه عليه كل سؤله، وصعد معه من بني إسرائيل والكهنة واللاويين إلى أورشليم في السنة السابعة لأمر تحشتا الملك، وجاء إلى أورشليم في الشهر الخامس في السنة السابعة للملك، لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء[١٧].

هذا هو عزرا الكاهن ابن السبي البابلي، الذي تنسب إليه التوراة التي بين أيدينا الآن، ككاتب لها، ويستفاد من النصوص التي تحدثت عن فترة ظهوره أنه نشأ وتربى في أحضان البلاط البابلي، وهو ينظر إلى شعبه المقهور المفعم بالذكريات والأساطير والأحزان، شعب يتغنى في بكائيات لا يهدأ نواحها على أمجاد إسرائيل الغابر، وما حل به من مصائب ونكبات، مما كان له أثره في تكوين وجدان وتصورات عزرا ومشاعره الدينية، كما كان يتمتع بذهن متقد وحماس وطموح فائر، بوأ له مكانا

---

١٧ ـ سفر عزرا : ١/٧ ـ ١٠

بارزا في بلاط كورش وهيأ له سبيلا إلى استعطاف كورش وإصغائه إلى تطلعات اليهود، واستجابته إلى تحقيق آمالهم في العودة إلى أورشليم، وقد أفسحت له منزلته وقربه من الملك مكانا في المكتبة الملكية، وهيأت له الاطلاع على ما تحويه خزائنها من أمهات الكتب والمراجع في مختلف الفنون، والعلوم والآداب، وتاريخ العالم، وأخبار الشعوب، ومنها: تاريخ بنى اسرائيل منذ إبراهيم عليه السلام، وحتى تدمير البيت المقدس، وأورشليم كلها على يد بختنصر ملك بابل، كما أتاح له الاطلاع على سجلات ديوان الملك وأرشيفه اليومي عن أحوال اليهود وسيرتهم قبل الأسر وأثناءه ومصير من بقى منهم في فلسطين، والمشردين منهم في أنحاء الإمبراطورية البابلية أو غيرها من الممالك الأخرى.[١٨].

كما كان لمنزلة عزرا ومكانته أثرها في رفع شأنه بين بنى جنسه وتعلق آمالهم به، مما هيأ له الإحاطة بما عند الأحبار والكهان والعلماء والعامة من تراث ديني، ومن عادات وأعراف اجتماعية، وقصص وأساطير يهودية.

كل ذلك هيأ لعزرا معلومات ومعارف واسعة امتزج فيها العلم بالخرافة، والحقيقة بالأساطير، والخيال والهوى بالحق، والحكمة بالعاطفة، وكان هذا الخليط هو المداد الذى أعاد به عزرا كتابة تاريخ بنى إسرائيل، وصاغه صياغة جديدة في إطار من تاريخ العالم القديم.

ومن المرجح أن طموح عزرا وهو يكتب كان في حدود هذا الفرض التاريخي، ولكن ربما لأسباب شخصية أو لضرورات دينية واجتماعية وسياسية، انتهز فرصة تطور الأحداث التي انتهت بإصدار عفو ملكي عن اليهود، والسماح لهم بالعودة إلى أورشليم، ليخلع على تاريخه رداء التوراة، ويتحول من مؤرخ إلى كاهن حفيظ على تراث إسرائيل المقدس.

وهذا هو الفرض الذي نطرحه للتحقيق، والذي أوحى به تحليل نصوص أسفار اليهود نفسها، وهو فرض ـ وإن كان شأنه شأن أى فرض علمي آخر ـ قابل للتحقيق والبحث العلمي، إلا أنه يبقى له في نظري ميزة أخرى، وهو أن الأخذ به يفسر لنا أشياء كثيرة تثير كثيرا من التساؤلات التي لا نجد لها حتى الآن إجابات حاسمة، منها مثلا: وحدة اسلوب وصياغة التوراة، والعامل الزمني في كتابتها، بمعنى أنها كتبت

---

١٨ ـ انظر سفر: عزرا، ونحميا، واستير، وأخبار الأيام الثانى.

كلها بعد زمن وقوع أحداثها، ويكفي مثلا على ذلك هذا النص الذى ختمت به أسفارها الخمسة :

« . . . وصعد موسى من عربات موآب، إلى جبل نبو، إلى رأس الفجة الذى قبالة أريحا، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان . . . فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب. ودفن في الجواء في أرض موآب، مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات، ولم تكل عينه، ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل موسى. . ثلاثين يوما. . ولم يقم بعد نبي في بني إسرائيل مثل موسى، الذي عرفه الرب وجها لوجه. . »[١٩].

كما يفسر لنا الأخذ بهذا الفرض، المصادر التى اعتمد عليها عزرا في ضوء فقد التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، منذ سليمان عليه السلام ـ على الأقل ـ وحتى عزرا نفسه، كما يفسر لنا وحدة الأسلوب والصياغة بين أسفار التوراة والأسفار التالية لها حتى سفر عزرا، وغير ذلك من الأمور التي ربما في غياب هذا الفرض لا نجد لها جوابا شافيا.

مسوغـات هذا الفـرض

ولكن لمزيد من تدعيم هذا الفرض الذي نطرحه لمزيد من الدراسة والتحقيق، نقدم الملاحظات الآتيه :

أولا : عدم إعلان عزرا عن حيازته للتوراة طوال زمن السبي، وزميله «نحميا» الذي كان يعمل ساقيا للملك أرتحشتا، والذي عينه واليا على اليهود في يهوذا بعد عودتهم من السبي،[٢٠]

أقول: إن نحميا هذا الذى كان يعمل ساقيا للملك وقت وجود عزرا وحظوته في البلاط الملكي البابلي، لم يتحدث أو يشير مجرد إشارة في سفره إلى التوراة، ولا إلى عزرا كحامل أو حافظ لها، بل إنه لم يرد ذكر للتوراة بتاتا في أسفار اليهود التي أرخت لفترة السبي البابلي.

---

١٩ ـ التثنية : ٣٤/ ١ ـ ١٠

٢٠ ـ انظر نحميا ١ ـ ٣

ثانيا : يفهم من الرواية التى أوردها «نحميا عن توراة عزرا بعد السبي، أن رؤساء الشعب والأحبار والكهنة وكلهم كانوا من المعاصرين لعزرا في السبي، أنهم حين سمعوا ما تلاه عليهم عزرا على أنه كلام الله إلى موسى عليه السلام، غلبت عليهم الدهشة، وشهدوا صراحة على أن إسرائيل لم يقع لها مثل هذا الموقف مع التوراة منذ يشوع تلميذ موسى عليه السلام. فضلا عما يدل عليه موقفهم هذا من أنهم لم يسمعوها من عزرا قبل ذلك، أو كان لديهم علم سابق عن وجود التوراة لديه، وهذا هو الحدث كما يعرضه سفر نحميا :

«.. ولما استهل الشهر السابع وبنو إسرائيل في مدنهم، اجتمع كل الشعب كرجل واحد الى الساحة أمام باب الماء، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتى بسفر شريعة موسى التى أمر بها الرب إسرائيل، فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء، وكل فاهم ما يسمع، في اليوم الأول من الشهر السابع، وقرأ فيها أمام الساحة التي أمام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار.. وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة.. وفتح عزرا السفر أمام كل الشعب، لأنه كان فوق كل الشعب، وعندما فتحه وقف كل الشعب، وبارك عزرا الرب الإله العظيم..

وفي اليوم الثانى اجتمع رؤوس آباء جميع الشعب والكهنة واللاويين إلى عزرا الكاتب ليفهمهم كلام الشريعة، فوجدوا مكتوبا في الشريعة التى أمر بها الرب عن يد موسى أن بني إسرائيل يسكنون في مظال في العيد في الشهر السابع، وأن يسمعوا وينادوا في كل مدنهم وفي أورشليم قائلين : اخرجوا إلى الجبل، وأتوا بأغصان زيتون، وأغصان زيتون بري، وأغصان آسى، وأغصان نخل، وأغصان أشجار غبياء، لعمل مظال كل واحد على سطحه، وفي دورهم، ودور بيت الله، وفي ساحة باب الماء وفي ساحة باب أفرايم، وعمل كل الجماعة الراجعين من السبي مظال، وسكنوا في المظال، لأنه لم يعمل بنو إسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون إلى ذلك اليوم، وكان فرح عظيم، وكان يقرأ في سفر شريعة الله يوما فيوما، من اليوم الأول إلى اليوم الأخير، وعملوا عيدا سبعة أيام، وفي اليوم الثامن اعتكاف حسب المرسوم»[٢١].

ثالثا : لو كانت تلك التوراة في حيازة عزرا، فإن منطق الأمور يقضي بأن يظهرها أيام السبي، لحاجة الشعب إليها للسلوى، وشد العزائم، والصبر، وإحياء الأمل

---

٢١ ـ انظر سفر نحميا ـ ٨

والوحدة الوجدانية والفكرية والعقدية، ولكن ما يؤكده النص السابق، أن الشعب لم يسبق له أن سمع بالتوراة، ليس في زمن السبي فحسب، وإنما منذ دخولهم إلى فلسطين على يد يوشع بن نون، وهذا وإن كان يؤكد ما قلناه في توراة حلقيا، فإنه من جهة أخرى يعتبر تدعيما للفرض الذي نطرحه في توراة عزرا.

رابعا : ومما يرجح أن عزرا لم تكن لديه توراة موسى عليه السلام، وإنما هو تاريخ ألفه معتمدا فيه على المراجع والسجلات البابلية، وما جمعه من أفواه اليهود من تراث وأساطير، أنه لو كان لديه مثل هذه التوراة لبادر بالعودة إلى أورشليم حاملا إياها كرمز الرموز المقدسة لليهود، ولكن على العكس، نجده لا يعود إلى أورشليم، إلا بتكليف ملكي، لحفظ الأمن والنظام في أورشليم، بعد عودة الشعب إلى دياره، وإعادته بناء البيت المقدس بزمن طويل. بل إن في مهمة عزرا التى كلفه الملك بإنجازها ما يثير كثيرا من الشكوك حول عزرا نفسه وعلاقته الملكية، والمهمة التي أريد له القيام بها، مما يرجح في الوقت نفسه أن ما ادعاه عزرا فيما كتبه من تاريخ من أنه توراة موسى، إنما كان يخفي وراءه أهدافا سياسية، بمعنى أن هذه التوراة المزعومة قد وظفت لتحقيق أهداف سياسية، واليكم نص التكليف ـ وهو صادر من ملك لايدين باليهودية ـ إلى عزرا الكاهن اليهودى، كما ورد في سفر عزرا نفسه :

«من أتحشتا ملك الملوك، إلى عزرا الكاهن، كاتب شريعة إله السماء الكامل، إلى آخره. . قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى اورشليم معك فليرجع، من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة، لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم، حسب شريعة إلهك التي بيدك، ولحمل فضته وذهب، تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه. .

ومني أنا أرتحشتا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين في عبر النهر أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فليعمل بسرعة إلى مئة وزنه من الفضة، ومئة كرمن الحنطة، ومئة بث من الخمر، ومئة بث من الزيت والملح من دون تقييد، كل ما أمر به إله السماء، فليعمل باجتهاد لبيت اله السماء، لأنه لماذا يكون غضب على ملك الملك وبنيه، ونعلمكم أنه جميع الكهنة واللاويين والمغنيين والبوابين. . وخدام بيت الله، هذا لا يؤذن أن يلقى عليهم جزية أو خراج أو خفارة.

أما أنت يا عزرا ـ فحسب حكمة إلهك التى بيدك ـ ضع حكاما وقضاة يقضون لجميع الشعب الذى في عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك، والذين لا يعرفون فعلموهم، وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليقضى عليه عاجلا، إما بالموت أو بالنفي، أو بغرامة المال، أو الحبس»[٢٢].

ولا شك أن الناظر في هذا النص يجده وكأنه إطلاق ليد حاكم بابلي له سلطات مطلقة تشريعية وتنفيذية في رقاب بنى إسرائيل، أكثر منه وصية لكاهن يحمل التوراة لرعاية شعبه وتعليمهم أحكام الله، كذلك فإنه مما يبعث على الشك: ذلك الحماس من الملك لشريعة غير شريعته.!

خامسا : هناك رسالة لها مغزاها ودلالتها في ترجيح الفرض الذي طرحناه، وهي تلك الرسالة التى وجهها أهل فلسطين إلى الملك أتحشتا يحذرونه فيها من نتائج إطلاق اليهود من الأسر وعودتهم إلى فلسطين، ومساعدتهم في بناء أورشليم من جديد، كما أن فيها إشارات واضحة إلى المصادر التي نفترض أن عزرا اعتمد عليها في كتابة تاريخه، تقول الرسالة : «عبيدك القوم الذين في عبر النهر إلى آخره : ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك إلينا قد أتوا إلى أورشليم، ويبنون المدينة العاصية الردية، وقد أكملوا أسوارها، ورمموا أسسها، ليكن الآن معلوما لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون جزية ولا خراجا ولا خفارة، فأخيرا تضر الملوك، والآن بما أننا نأكل ملح دار الملك، ولا يليق بنا أن نرى ضرر الملك، لذلك أرسلنا فأعلمنا الملك، لكي يفتش في سفر أخبار آبائك فتجد في سفر الأخبار وتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة للملوك والبلاد، وقد عملوا عصيانا في وسطها منذ الأيام القديمة، لذلك أخربت هذه المدينة، ونحن نعلم الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب عبر النهر»[٢٣].

والنص واضح في أن تاريخ اليهود كان مسجلا لدى الفرس، وفي سجل يحمل نفس الاسم الذي تحمله أسفارهم، وفي رد الملك على تلك الرسالة ما يؤكد هذا الذي نشير إليه، حيث يقول عزرا : «فأرسل الملك جوابا النبي رحوم صاحب القضاء وشمشاي الكاتب.. سلام إلى آخره، الرسالة التي أرسلتموها إلينا قد قرئت

---

٢٢ ـ عزرا : ٧/١١ ـ ٢٦

٢٣ ـ عزرا : ٤/١١ ـ ١٦

بوضوح أمامي، وقد خرج من عندي أمر، ففتشوا ووجد أن هذه المدينة منذ الأيام القديمة تقوم على الملوك، وقد جرى فيها تمرد وعصيان، وقد كان ملوك مقتدرون على أورشليم وتسلطوا على جميع عبر النهر، وقد أعطوا جزية وخراجا وخفارة، فالآن أخرجوا أمرا بتوقيف أولئك الرجال فلا تبنى هذه المدينة حتى يصدر من أمر. . »[٢٤].

ولكن ما لبث اليهود بعد موت الملك أن استأنفوا البناء من جديد، ولما لم يسمعوا لتحذير عمال الملك من هذه المخالفة، رفع هؤلاء العمال تقريرا بذلك إلى الملك الجديد «داريوس» قالوا فيه :

«لداريوس الملك كل سلام.

ليكن معلوما لدى الملك أنا ذهبنا إلى بلاد يهوذا، إلى بيت الإله العظيم، وإذا به يبنى بحجارة عظيمة، وبوضع خشب في الحيطان، وهذا العمل يعمل بسرعة، وينجح في أيديهم، حينئذ سألنا هؤلاء الشيوخ وقلنا لهم هكذا : من أمركم ببناء هذا البيت وتكميل هذه الأسوار؟ وسألناهم أيضا عن أسمائهم لنعلمك. . وبمثل هذا الجواب جاوبوا قائلين : نحن عبيد إله السماء والأرض، ونبني هذا البيت الذي بني قبل هذه السنين الكثيرة، وقد بناه ملك عظيم لإسرائيل وأكمله، ولكن بعد أن سخط أباؤنا إله السماء دفعهم ليد نبوخذ نصر ملك بابل الكلداني الذي هدم هذا البيت وسبى الشعب إلى بابل، على أنه في السنة الأولى لكورش ملك بابل أصدر كورش الملك أمرا ببناء بيت الله هذا.

والآن إذا حسن عند الملك فليفتش في بيت خزائن الملك الذي هو هناك في بابل، هل كان قد صدر أمر من كورش الملك ببناء بيت الله هذا في أورشليم.

حينئذ أمر داريوس الملك، ففتشوا في بيت الأسفار، حيث كانت الخزائن موضوعة في بابل، فوجد درجاً مكتوباً فيه هكذا : تذكار في السنة الأولى لكورش الملك، أمر كورش الملك من جهة بيت الله في أورشليم ليبن البيت. . . . »[٢٥]

---

٢٤ ـ عزرا : ٤/١١ ـ ١٦

٢٥ ـ عزرا : ٥/٨ ـ ١٧، ٦/١ ـ ٢

وهذه المراسلات تشير صراحة إلى دقة الديوان الفارسي في تسجيل أخبار المملكة تفصيلا في سجلات يومية، كما تشير إلى وجود خزائن منظمة ومرتبة ترتيبا دقيقا عن أحوال العالم المعاصر لفترة السبى والعالم القديم، مما يوضح لنا قيمة المصادر والمعلومات التي كانت في متناول عزرا ومدى استفادته منها.

سادسا : التشابه الكبير في طريقة سرد الأحداث في أسفار اليهود، مع طريقة سجل الأخبار البابلي، من حيث الحرص على ذكر الأحداث تفصيلا: باليوم، والشهر، والسنة. وقد لاحظنا ذلك في النصوص التي أوردناها، ونجد شبيها لذلك أو ربما التطابق في المنهج مع سفر أخبار الفرس حيث يقول مثلا :

«وفي سنة ٥٣٩ ق.م غزا قورش بلاد بابل.. وكان نابونيط في طريق عودته إلى بابل في السنة السابعة عشر من حكمه، وكان قد جرى في تلك السنة الاحتفال بعيد الأكينو بحضور نابونيط.. في شهر تشرين هاجم قورش مدينة أوبيش، وفي الرابع عشر من الشهر نفسه احتلت مدينة سيبار، ولاذ نابونيط بالفرار.. وفي اليوم الثالث من الشهر الثامن دخل قورش مدينة بابل، وقد جاء دخوله بعد أسبوعين من استيلائه على بابل..»[٢٦].

فأنت هنا وكأنك لا تجد فرقا في المنهج أو الأسلوب بين أسفار اليهود وبين أسفار بابل، كذلك التشابه اللفظي، خصوصا ما يتعلق منها بالألفاظ التي تعبر عن غضب الله أو رضاه مثل : «غاظ، أغاظ»، و «قلبه»، «وسار وراء آلهة أخرى» ونحوها. فقد جاء في سفر الأخبار البابلي قوله : «وكان نابونيط قد أغاظ كهنة بعل «مردوخ»، في بابل حين بعثر جهوده بانسياقه لآلهة غير الوهية «مردوخ»، واستغل قورش هذا الغيظ فذكر البابليين بأن نايونيط قد أغاظ الإله «مردوخ» حتى إن الاله مردوخ طاف

---

٢٦ ـ تاريخ بابل ص١٦٩ ـ مارغريت روث ـ ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، منشورات عويدات ـ بيروت ط٢ سنة ١٩٨٤م.

البلدان وبحث عن أمير عادل، أمير قريب من قلبه، بوسعه أن يأخذ بيده، وقد ناداه باسمه : يا قورش ملك انزل، فعينه لسرير الملك . . »[٢٧].

كذلك فمن أوجه التشابه الظاهر، اتفاق الأسفار مع السجل البابلي في سرد وقائع بعينها، مما يعني أن السجلات البابلية كانت مرجعا تأخذ عنه الأسفار أخبارها، وهو الأمر الذي لفت نظر الباحثة «مارغريت، وجعلها تعلق على النص السابق بقولها : » ومما يلفت النظر في كتابة قورش المدونة هذه: هو توافقها مع ما جاء في كتاب التوراة على لسان أشعيا النبى : هكذا يتكلم الأزلي إلى مسيحه ـ تدل على أن الملك كان مكرسا من قبل الإله ـ لقد أطلقت عليك لقبا دون أن تعرفني لقد ناديتك باسمك . .
ومن ثم يضيف نص قورش قائلا : لقد نظر الإله مردوخ نظرة فرح إلى أعماله الخيرة، وإلى قلبه العادل، وأمره بأن يذهب إلى مدينته بابل، وكصديق ورفيق مشى بجانبه . .
وبتعابير مماثلة يعبر الأزلي عن نفسه في سفر أشعيا قائلا : سأسير أمامك!

أما فكرة القضاء والقدر فهي مماثلة تماما في الروايتين، وتنهي إسطوانة قورش تدوينها المطول على هذا الوجه :
إن إلهة سومر وآكاد، التي أرجعها نابونيط على أثر غضب مردوخ جعلتها من جديد تحتل مذابحها بطمأنينة وهدوء . .

وتشير الأسطوانة بالإضافة إلى ذلك، أن قورش منح حق العودة لشعوب كل البلدان قاطبة، فكان أمره هذا تحريرا لليهود . . »[٢٨].

سابعا : المكانة الرفيعة التي تحتلها بابل وملوكها في الأسفار اليهودية، والتي يعبر عنها النبي إرميا بعاطفة صريحة جياشة مفعمة بالتقدير العميق، وهو الذي شاهد تدمير وحراق كل أورشليم، وذابت نفسه حسرات عليها يقول، «بابل كأس ذهب بيد الرب، تسكر كل الأرض من خمرها، شربت الشعوب، من أجل ذلك جنت الشعوب . . »[٢٩].

---

٢٧ ـ المرجع السابق : ١٧٠
٢٨ ـ السابق : ١٧ ـ ١٧٢
٢٩ ـ إرميا : ٧/٥١، وانظر كذلك : ٥٢ ففيه وصف تفصيلي لحرق كل أورشليم وتدميرها تدميرا تاما.

ويقول : «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل، هكذا تقولون لسادتكم : إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض بقوتي العظيمة، ويداي الممدودة، وأعطيتها لمن حسن في عيني، والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي، وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه، فتخدمه كل الشعوب، وابنه وابن ابنه يأتي وقت أرضه فستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام، ويكون أن الأمة التي لا تخدم نبوخذ ناصر ملك بابل والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء، يقول الرب: حتى أفنيها بيده، فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعائقيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين: لا تخدموا ملك بابل، لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب، لكي يبعدوكم من أرضكم، ولأطردكم فتهلكوا، والأمة التي تدخل عنقها تحت يد ملك بابل وتخدمه أجعلها تستقر في أرضها، يقول الرب: وتعملها وتسكن فيها. .»[٣٠].

وهذا التقدير الذي نلحظه في هذه النصوص وغيرها من نصوص الأسفار، يفسر لنا الاهتمام الخاص الذي تبديه أسفار اليهود بأخبار آشور وبابل، بالإضافة إلى عاطفة أخرى لاشك من تأثيرها على نفسية اليهود، وهي تلك النسبة التي تربطهم بتلك الممالك، فهي الممالك التي رحل عنها جدهم الأكبر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.[٣١].

ثامنا : تأثر الأسفار الواضح بالنظم التشريعية والقضائية البابلية، وفي هذا يؤكد قاموس التوراة، الذي نشره «سكرينبر» في نيويورك سنة ١٩٠٩م. : «أن الأصول القضائية والتشريع، وكذلك الطقوس المعمول بها في المعابد البابلية يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع العبرانية في الأصول القضائية والطقوس الدينية»[٣٢].

كذلك من الأمور التى لها دلالتها في هذا المقام، أن الآلهة التي كان يعبدها اليهود

---

٣٠ ـ السابق : ٢٧/ ٤ ـ ١١

٣١ ـ انظر : موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية جـ ٨ ص٣ ـ زكي شنوده، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٣م.

٣٢ ـ التوراة تاريخها وغاياتها ص٢٨ ـ ترجمة سهيل ديب ـ دار النفائس حسن ظاظا ـ مكتبة سعيد رأفت سنة ١٩٧٥م.

ويقيمون لها النصب ويقدمون إليها القربان، في فترات ارتدادهم، كانت آلهة بابلية مثل : عشتارت، ومردوخ، وغيرها[٣٣].

تاسعا : ما ذكره كثير من الباحثين من أن : «معظم الديانات التى ذكرت في الأسفار القديمة على أنها من صلب التاريخ اليهودي إنما نقلت عن قصص وأساطير بابلية قديمة . .[٣٤].

ومن أمثلة هذا التأثير أن «الفوريم» وهو من الأعياد الدينية عند اليهوذ الذي يحتفلون به في الرابع عشر والخامس عشر من آذار كل عام بحسب التقويم العبري، إنما هو احتفالهم بذكرى اليومين الذين قتل اليهود فيهما وهم في السبى، أكثر من ثمانين ألف فارسي بأمر من أحتوروش ملك الفرس، بتحريض من زوجته اليهودية «أستير»[٣٥].

وأمثلة أخرى عديدة ذكرها الباحثون للتشابه الواضح والتأثر الشديد لأسفار اليهود بالتراث والمعتقدات والطقوس البابلية[٣٦].

من كل هذا تتضح لنا أهمية المصادر التي اعتمد عليها عزرا في تحرير توراته، ومدى الاستفادة التي أتيحت له عند كتابة تاريخه،

وإذا تصورنا قيمة المصادر والمراجع، من حيث الكم والكيف، التي يمكن لمكتبة إمبراطورية كبرى لها مكانتها التاريخية والجغرافية الفريدة في ذلك الوقت، وغزارة المعلومات وتنوعها التي تشتمل عليها سجلات ديوان الحكم لمثل هذه الإمبراطورية.

«فما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة، ثم يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحر اللافح الممتدة على نهر الفرات، كانت من قبل موطن حضارة ثمينة قوية، كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك، وأعدت أول كتب القانون الكبرى، وعلمت اليونان مباديء الحساب، وعلم الطبيعة، والفلسفة، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم»[٣٧].

---

٣٣ ـ انظر : الديانة عند البابلين ـ الفصل الرابع ـ جان يوتيرو ترجمة وليد الجادر ـ طبع جامعة بغداد ١٩٧٠م.

٣٤ ـ التوراة تاريخها وغاياتها ص٣٠

٣٥ ـ انظر تفاصيل هذه المذبحة وكيد اليهود فيها : سفر أستير/ ٩

٣٦ ـ انظر مخطوطات البحر الميت ـ قصة اللفائف الكتانية والنحاسية التوراتية/ ٧٩ وما بعدها ـ حسين عمر حمادة ـ دار منارات للنشر عمان سنة ١٩٨٢م.

٣٧ ـ قصة الحضارة : ٢/ ١٨٧ ـ ول ديورانت ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥م.

وقد كان كل ذلك متاحا وفي متناول يد عزرا من حيث استعداده الشخصي، ومن حيث مكانته في البلاط الملكي، ومن حيث طموحه وأحلامه.

فقد ذكر كتاب «تاريخ إيران» أنه قد : «اشتهر آشور بانيبال بأنه رتب مكتبة عثر عليها، وحصل الباحثون من الآثار المذكورة على معلومات قيمة تتعلق بتاريخ آشور وما جاورها من ممالك، كما أن هذا الملك فضلا عن جمعه للألواح الآشورية نقل اللوحات البابلية وحفظها، وتصل الألواح المذكورة إلى عدة آلاف، وهي الآن موجودة بالمتحف البريطاني بلندن، محل دراسة وتحقيق علمي»[٣٨].

ويذكر الكتاب أن نيبال هذا تولى عرش آشور سنة ٦٦٩ ق.م. وضم إلى مملكته بابل، بعد أن قتل أخاه الذي كان ملكا عليها، وقد كان قبل السبي بمئة عام تقريبا، مما يعطينا فكرة عن الكم الهائل من الوثائق والمراجع التي كانت متاحة لعزرا وقت كتابته تاريخ اليهود أو أسفارهم، وربما تكشف الحفريات والعمليات النشطة الجارية الآن للكشف عن آثار الممالك الشرقية القديمة من بابل وآشور وغيرها عن مزيد من المعلومات والأدلة في موضوعنا، وهو الفرض بأن التوراة التى بين أيدينا الآن، محصلة أو تنقيح لتاريخ كتبه عزرا في السبي على شموع مكتبة الإمبراطورية البابلية، ومن سجلاتها، أو أخبار الأيام فيها، أو من مرويات اليهود، وجذاذات من القصص والأساطير التي يحملونها، تأريخ ألفه ثم وضع عليه اسم موسى عليه السلام عندما رأى أن ذلك أكثر فائدة لمستقبل شعبه وأخلد لذكره.

وما يمكن أن ننتهي إليه مع كل ما قدمناه من مرجحات، أنه لا يمكن أن تكون توراة عزرا مبتوتة الصلة بحضارة البابلين، وأن جذورها تمتد في مكتبات تلك الحضارة ومدوناتها في القانون ومروياتها عن الخلق والتكوين والأدب والشعر، ومن يطالع الثلاثين ألف لوح التي كشف عنها برزاك في مدينة تلد موضوعة بعضها فوق بعض في نظام أنيق منطقي دقيق، ومادونه فيها مؤرخو السومريين عام ٢٠٠٠ ق.م، عن ماضيهم وحاضرهم، لابد أن يعثر على الخيوط التي نسج منها عزرا تاريخه[٣٩].

---

٣٨ ـ س ٥١ تأليف حسين بيرنيا ـ ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي ـ الإنجلو المصرية سنة ١٩٧٩م.

٣٩ ـ انظر : قصة الحضارة ٢/٣٦

هذا هو الفرض الذي نطرحه في توراة عزرا، وإن كان هذا الفرض يظل قابلا للتحقيق والمناقشة، إلا أن قيمته الجوهرية ـ في نظري ـ تكمن في توجيه البحث إلى احتمالات جديدة، وفي الأصول التي اعتمد عليها في تحريرها، بعد أن أصبح الإجماع يكاد يكون تاما على أن توراة اليوم ليست هي بعينها توراة موسى عليه السلام[٤٠].

كذلك فإن لهذا الفرض قيمة علمية أخرى من حيث صلاحيته كمعيار يعتمد عليه في تفسير كثير من المسائل المعلقة في سند التوراة ومتنها، سواء مما يثار منها في الفكر اليهودي أو المسيحى أو الإسلامي على حد سواء.

ضوابـــط تحقـيق الفـرض

ولكن إذا كان هذا هو الفرض الذي نطرحه للتحقيق العلمي، فيبقى أن هذا الفرض ربما كان التسرع بالأخذ به دون تحقيق أو تمحيص ينشأ عنه نتائج لا يمكن إغفال آثارها الدينية في الاديان الثلاثة، وخصوصا منها الإسلام.

فإنه مما لا شك فيه أن من ينظر في التوراة الآن يجد مسائل كثيرة خصوصا ما يتعلق منها بالقصص وبعض الآحكام العملية تتفق في جملتها أو في كثير منها مع ما ورد بشأنها في القرآن.

فالقول بأن كل ما ورد في التوراة لا أصل له أو أنه أساطير وأكاذيب من نسج خيال عزرا، قول يخالف الواقع، ولم نقل به ولم نذهب إليه، وهو عندنا مثل القول بأن التوراة التي بين أيدينا الآن هي توراة موسى عليه السلام، فكلاهما مخالف للواقع والتحقيق العلمي والمنطق الديني، فكلا القولين إذن خارج مذهبنا كما هو خارج منطق العقل والنقل :

ومن هنا يتعين عند تحقيق ذلك الفرض الذي طرحناه أن نأخذ في اعتبارنا عند تحقيقه أمرين لابد من مراعاتهما :

الأمر الأول : أنه عند التسليم بأن التوراة ـ في أصلها ووضعها الأصلي ـ وحي من الله، فإن القول بتحريفها اعتمادا على ضعف السند فقط، ربما يرد عليه بأن ضمان

٤٠ ـ انظر : الكتاب المقدس في الميزان ص٦٨، وما بعدها ادوارج يونج ـ ترجمة الباس مقار ـ دار الثقافة المسيحية القاهرة ١٩٧٧م.

بقائها كنص منزل، لا يعتمد على حفظ البشر، وإنما يعتمد على حفظ الله لكلمته، فهو أمر مرهون بمشيئة الله، وليس بمشيئة البشر، فانقطاع السند ـ مع هذا الحفظ الإلهى ـ لا يؤثر في بقائها على الصورة التي نزل الوحي بها، ولا يصلح العقل هنا معيارا للرد أو القبول، لأن الوحي والعلم والمشيئة الإلهية كلها أمور من طور فوق طور العقل، ولا تخضع لمقاييس البشر، فالوحي حاكم أو قيم على العقل، ولا يصح ولا يصلح أن يكون العقل حاكما أو قيما عليه.

ولذلك الملحظ وجاهته وبريقه لو كان مجرد أن التوراة وهى من الله يمنحها الحفظ والبقاء، أو أن معقوليتها ليس شرطا في التسليم بحفظها، أو أنه ليس لشهادة العقل البتة اعتبار في قضية الوحي، ولكن الأمر ليس على هذا النحو من البساطة والإطلاق.

فالحفظ والبقاء ليس صفة لازمة للوحي لكونه وحيا، وإنما ذلك الحفظ صفة يمنحها صاحب الوحي بمشيئته، ووفق إرادة يعبر عنها صراحة عن طريق الوحي نفسه، والتوراة التى بين أيدينا لم تتضمن صراحة هذا الوعد أو ما يشير إلى إرادة الله في حفظها وبقائها، كذلك لم يرد في القرآن الكريم شيء من ذلك، بل إنه ـ على العكس من ذلك ـ نرى القرآن يتفق مع أسفارهم على التنديد صراحة بأخلاقهم، فيشير صراحة أن من أبرز رذائلهم وأبشعها الكذب على الله، وتحريف كلامه عن موضعه، وتبديله بما يتفق مع أهوائهم وشهواتهم، وقتل أنبيائه الذين بعثهم لتصحيح هذا التحريف والتبديل لكلام الله وأحكامه، وأنهم لا يتورعون عن أن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.

هكذا قال الرب لسليمان عليه السلام لما أكمل بناء بيت الرب: «إن كنتم تنقلبون أنتم وأبناؤكم من ورائي، ولا تحفظون وصاياي وفرائضي التي جعلتها أمامكم، بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فإني أقطع إسرائيل من وجه الأرض التي أعطيتكم إياها، والبيت الذي قدسته لاسمي أنفيه من أمامي، ويكون إسرائيل مثلا وهزأة في جميع الشعوب، وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه، يتعجب ويصفر. ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت؟ فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر، وتمسكوا بآلهة أخرى، وسجدوا لها، وعبدوها، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر..»[٤١].

---

٤١ ـ سفر الملوك الأول: ٩/٦ ـ ٩

وينزل بهم الوعيد الإلهى : «وتكلم الرب عن يد عبيده الأنبياء قائلا : من أجل أن منسى ملك يهوذا قد عمل هذه الأرجاس، وأساء أكثر من جميع الذي عمله الامورويون الذين قبله، وجعل أيضا يهوذا يخطيء بأصنامه، لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل: هأنذا جالب شرا على أورشليم ويهوذا حتى إن كل من يسمع تطن أذناه، وأمد على أورشليم ويهوذا خيط السامرة، ومطمار بيت آخاب، وأمسح أورشليم كما يمسح واحد صحنه، يمسحه ويقلبه على وجهه، وأرفض بقية ميراثي، وأدفعهم إلى أيدي أعدائهم، فيكونون غنيمة ونهبا لجميع أعدائهم، لأنهم علمو الشر في عيني، وصاروا يغيظونني من اليوم الذي خرج أباؤهم من مصر إلى هذا اليوم»[٤٢].

وقال لإرميا النبي :

طوفوا في شوارع أورشليم، وانظروا، واعرفوا، وفتشوا في ساحاتها، هل تجدون إنساناً، أو يوجد عامل بالعدل طالبا الحق فأصفح عنه؟!

جحدوا الرب. وقالوا: ليس هو، ولا يأتي علينا شر، ولا نرى سيفا، ولا جوعا. والأنبياء يصيرون ريحا، والكلمة ليست فيهم..

اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم، الذين لهم أعين ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون، أإياى لا تخشون؟ أو لا ترتعدون من وجهي؟!

صار لهذا الشعب قلب عاص ومتمرد، عصوا ومضوا، ولم يقولوا بقلوبهم: لنخف الرب إلهنا، الذي يعطي المطر..

مثل قفص ملآن طيورا هكذا بيوتهم ملآنة مكرا، من أجل ذلك عظموا واستغنوا، سمنوا، لمعوا أيضا، تجاوزوا في أمور الشر، لم يقضوا في الدعوى، دعوى اليتيم، وبحق المساكين لم يقضوا، أفلأجل هذه لا أعاقب..؟ أو لا تنتقم نفسي من أمة كهذه؟!

صار في الأرض دهش وقشعريرة : الأنبياء يتنبأون بالكذب، والكهنة تحكم على أيديهم، وشعبي هكذا أحب!!

ها إن أذنهم غلفاء فلا يقدرون أن يصغوا..!

---

٤٢ - الملوك الثاني/ ٢١، ومنسي المذكور هو الذي تم بعده التدمير الثاني لأورشليم تدميرا تاما والذي لم تقم لاسرائيل بعده قائمة حتى اليوم.

ها إن كلمة الرب صارت لهم عارا، لا يسرون بها، فامتلأت من غيظ الرب، لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم كل واحد مولع بالربح، ومن النبي إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب!!

هل خزوا لأنهم عملوا رجسا؟ بل لم يخزوا ولم يعرفوا الخجل! لذلك يسقطون مع الساقطين..

لذلك اسمعوا يا أيها الشعوب، واعرفي أيتها الجماعة..

اسمعي أيتها الارض، هأنذا جالب شرا على هذا الشعب، ثمر أفكارهم، لأنهم لم يصغوا لكلامي، وشريعتي رفضوها.

ها. إنكم متكلمون على كلام الكذب الذي لا ينفع.

أتسرقون وتزنون، وتحلفون كذبا، وتنحرون للبعل، وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها، ثم تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دعي باسمى عليه..؟!

.. ها غضبي وغيظي يسكبان على هذا الموضع، وعلى الناس، وعلى البهائم، وعلى شجر الحقل، وعلى ثمرة الأرض، فيتقدان ولا يطفآن.. فمن اليوم الذي خرج فيه أباؤهم من أرض مصر إلى هذا اليوم، أرسلت إليكم كل عبيدي الأنبياء، مبكراً كل يوم ومرسلا، فلم يسمعوا لي ولم يميلوا أذنهم، بل صلبوا رقابهم، أساؤوا أكثر من أبائهم، فتكلمهم بكل هذه الكلمات، ولا يسمعون لك، وتدعوهم ولا يجيبونك، فتقول لهم: هذه هي الأمة التى لم تسمع لصوت الرب إلهنا، ولم تقبل تأديبا، باد الحق، وقطع عن أفواههم.. كيف تقولون: نحن حكماء، وشريعة الرب معنا؟! حقا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب.. فأي حكمة لهم؟!

لسانهم سهم قتال يتكلم بالغش، بفمه يكلم صاحبه بسلام، وفي قلبه يضع له كمينا! أفما أعاقبهم على هذا؟ يقول الرب: أم لا تنتقم نفسي من أمة كهذه؟!

قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبأوا باسمى بالكذب، الذين يفكرون أن ينسوا شعبي اسمى بأحلامهم التي يقصونها كما نسي أباؤهم اسمى لأجل البعل، هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة، يقصونها، ويضلون شعبي بأكاذيبهم ومفاخراتهم، وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة..

أما وحي الرب فلا تذكرون بعد، لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه إذ قد حرفتهم كلام الإله الحق رب الجنود إلهنا..

لذلك هأنذا أنساكم نسيانا، وأرفضكم من أمام وجهي، أنتم والمدينة التي أعطيتكم إياها، واجعل عليكم عارا أبديا، وخزيا أبديا لا ينسى..[٤٣].

هذه هي أخلاق اليهود بنص أسفارهم، ولكن ربما تثير هذه النصوص في النفس سؤالا!.

أليس في ذكر الأسفار، وهي يهودية، لخطايا اليهود وخطيئاتهم الدليل على سلامتها من التحريف؟

وهو تساؤل له وجاهته عند النظرة الأولى، ولكن عند التدقيق نجد الأمر على العكس من ذلك، بل إنه لمن أقوى الأدلة على أن تلك الأسفار من إملاء البشر، أو حملت بأحلام المتنبئين كما قال إرميا، وليست من إملاء الوحي، وأنها لا تعدوا عن كونها أسفارا في التاريخ، وليست أسفارا مقدسة، وهو ما يشير إليه صراحة النص السابق.

فطريقة سردها للأحداث والوقائع والمنهج الذي تعرضها به، يحدد لنا في سهولة ووضوح الغرض الذي كتبت من أجله، مما يؤكد أنها كتبت بيد كاتب، تفيض نفسه أسفا وحسرة على ما آل إليه حال الشعب اليهودي في الفساد والإلحاد والشتات والضياع، من حيث تركيزه على سرد الأسباب التي آلت باليهود إلى هذه الحال، من إهمال للشريعة، وقتل الأنبياء، وعبادة للأوثان، وغير ذلك، وتلك بالتحديد هي النغمة الرئيسة للأسفار في سرد الأحداث والوقائع، وهذا المنهج الذي اتبعته الأسفار لا يتفق بحال، من حيث عامل الزمن والمكان واللغة والموضوع، مع منهج الوحي وأغراضه. وقد أسهب علماء الأديان في اليهودية والمسيحية والإسلام وغيرهم، في اتخاذ هذه المفارقات معايير موضوعية في المقارنة بين لغة الوحي ولغة البشر في تلك الأسفار، واتخذوها دليلا على وضع التوراة وباقي الأسفار أو تحريفها[٤٤]، مما لا يبقى معه ريب في أنها كتبت بيد كاتب كان له غرض معين في كتابتها، كتبها بعد وقوع الأحداث بزمن طويل، وهم وإن كانوا على اتفاق في ذلك، إلا أن اختلافهم فقط هو فيمن هو هذا الكاتب؟ وما هي المصادر التي اعتمد عليها في كتابته؟

---

٤٣ - إرميا: ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ٢٣، ٢٦

٤٤ - انظر مثالا على ذلك للفيلسوف اليهودي اسبينوزا كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة»، وللعالم المسيحي شارك جنيبير في كتابه «المسيحية تطورها ونشأتها» وللعالم المسلم ابن حزم في كتابه «الفصل في الملك والأهواء والنحل» وكذلك المحقق العلامة رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق» وغيرهم كثير.

وكل هذا ـ سواء فيما اتفقوا فيه، أو فيما اختلفوا فيه ـ يؤكد قيمة الفرض الذي نطرحه للتحقيق في أن التوراة التي بين أيدينا الآن تعود في أصولها على الأقل إلى تاريخ ألفه عزرا وهو رهن السبي البابلي، لم يعتمد في كتابته على نص كامل للتوراة صحيح أو محرف.

ولأجل أن تأخذ صورة أخلاق اليهود كما لها في الوضوح، فعلينا أن نسمع بعض آيات القرآن في هذا الشأن من مثل قوله تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٤٥].

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٤٦].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤٧].

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ

---

٤٥ ـ البقرة / ٧٥
٤٦ ـ البقرة / ٧٩ ـ ٨٠
٤٧ ـ البقرة / ٨٧ ـ ٨٨

ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[٤٨].

﴿ نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٤٩].

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[٥٠].

هذه النصوص التى تتفق مع أسفارهم، على فساد أخلاق اليهود، وشيوع الكذب والعصيان بينهم، يجعلنا أمام حقيقة مؤكدة وهي عدم أمانتهم على كلام الوحي حفظا وقبولا، مما يجعل معيار السند مقياسا صحيحا في نقد كتبهم والتوراة التي بين أيدينا.

أما من حيث علاقة العقل بالوحي، فإن مما نسلم به، أنه عند اتصال السند تواترا، فإن العقل لا يصلح معيارا لصحة المتن في مجال الغيبيات، أو كل خبر يدخل في دائرة الإمكان العقلي جواز صدقه، ففي هذا المجال ليس أمامنا إلا الاعتماد على صحة السند للمتن نفسه كقياس لصحته، أو الاعتماد على مصدر ديني آخر صح متنه وسنده بيقين، ومن هنا تتضح لنا القيمة العلمية للقرآن الكريم في مجال نقد ما عداه من النصوص الدينية، وتمييز الوحي من الرأي، أو كلمة الله من كلمة الإنسان فيها.

وهذا في تقديري هو المنهج الصحيح في نقد النصوص الدينية، وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه ابن حزم في قوله: «إن كل ما كان في عنصر الإمكان، فأدخله مُدخِل في عنصر الامتناع بلا برهان، فهو كاذب مبطل، جاهل أو مجاهل، لاسيما إذا أخذ به من قام الدليل على صدق خبره، وإنما الشأن في المحال: الممتنع الذي يكذبه الحواس

---

٤٨ ـ آل عمران/ ١١٢
٤٩ ـ المائدة/ ١٣
٥٠ ـ المائدة/ ٧٨ ـ ٨٠

والعيان وبديهة العقل، فمن جاء بهذا فإنما جاء ببرهان قاطع على أنه كذاب مفتر»[٥١].

فالعقل ـ إذن ـ معيار صحيح في نقد المتن في محيط الممتنع عقلا من النص فقط، وليس في محيط الممكن منه، وبهذا المقياس فإننا نجد أيضا التوراة التي بين أيدينا فيها الكثير من النصوص والأخبار التي تدخل صراحة ضمن هذا المحيط، سواء في التناقض بين نصوصها، أو مع صريح العقل والواقع والحس والعيان، فإنه لا يتصور مثلا خطأ الوحي في الحساب، كما لا يتصور أن يتناقض الوحي مع حقائق التاريخ والجغرافيا والسنن الاجتماعية والكونية التي أجرى الله خلقه عليها، ولا يتصور كذلك أن يخلوا كتاب سماوي من الإشارة إلى أهم أركان العقيدة الإيمانية، وهو اليوم الآخر، وخلود الروح والبعث، بل إنه من المتعذر من حيث اللفظ واللغة على الأقل، تصور أن كلمات التوراة التي نقرؤها اليوم هي كلمات الله التي كلم الله بها موسى، أو كتبها في لوحي الشهادة.[٥٢]

إلى غير ذلك مما أسهب في إيراده العلماء من الأديان الثلاثة، بحيث لم يعد من الممكن معه إضافة أمثلة جديدة لما أوردوه في هذا الشأن، فإنه يكفي في ذلك مثلا الرجوع إلى كتاب ابن حزم في الفصل!

ليس لقيمة الأمثلة التي أوردها فحسب، وإنما للمنهج العلمي الدقيق الذي التزمه في هذا النقد، والذي نرى أنه المنهج الذي له اعتباره العلمي في هذا الشأن، أي في نقد النصوص الدينية، حيث يقول: «ليعلم كل من قرأ كتابنا هذا أننا لم نخرج من الكتب المذكورة ـ يقصد التوراة والإنجيل ـ شيئا يمكن أن يُخرَج على وجه ما، وإن دق وبعد، فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له، وكذلك لم نخرج منه كلاما لا يفهم معناه، وإن كان ذلك موجودا فيها، لأن للقائل أن يقول: قد أصاب الله به ما أراد. وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ولا وجه أصلا، إلا الدعاوى الكاذبة التي لا دليل عليها أصلا، لا محتملا ولا خفيا»[٥٣].

---

٥١ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ ١ ص١٢٠ ـ ابن حزم مكتبة المثنى ـ بغداد.

٥٢ ـ الكتاب المقدس في الميزان ـ الفصل الثالث، والرابع والخامس، والسابع.

٥٣ ـ جـ ١ ص١٧٧، وانظر كذلك إظهار الحق لرحمة الله الهندي فهو وافٍ وأصيل في هذا المجال.

الأمر الثانـــى

أنه وإن كان ثبوت تحريف التوراة والقول بأنها تاريخ ألفه عزرا، يترتب عليه زوال عصمتها وقداستها والعمل بها لاختلاط الملة بالنحلة، بناء على ما قررناه في الأمر الأول، إلا أن هذا لا يصلح مسوغا للقطع بتكذيب كل ما ورد فيها جملة وتفصيلا، أو القطع بتصديق ما قد يتفق منها مع القرآن والعقل، على أنه وحي، لأنه ربما يرد التكذيب على ما قد يكون في الواقع وحيا من الله إلى موسى، أو التصديق بما لا يكون في الواقع وحيا من الله إلى موسى عليه السلام.

والمنهج الصحيح في النظر إلى التوراة التي بين أيدينا الآن : هو المنهج الذي وضعه الرسول ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد»[٥٤].

وفيما رواه أحمد في سنده أن النبى ﷺ قال : «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقا لم تكذبوهم، وإن كان باطلا لم تصدقوهم»[٥٥].

وقوله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب بما يحدثونكم عن الكتاب، ولا تكذبوهم. وقولوا : آمنا بالله وما أنزل الينا، لأن الله تعالى أخبر أنهم كتبوا بأيديهم، وقالوا : هذا من عند الله»[٥٦]

وفيما رواه البخاري عن ابن عباس قال : «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ أحدث؟! تقرؤونه محضا لم يشب،

---

٥٤ ـ كتاب الاعتصام بالسنة جـ١٣ ص٣٣٣ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ دار المعرفة بيروت.

٥٥ ـ المسند / أحمد بن حنبل جـ٤ ص١٣٦ تحقيق أحمد شاكر.

٥٦ ـ التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول جـ ٨ ص١٢٩.
تفسير سورة البقرة ـ ابن الأثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط
دار البيان بيروت ـ ١٩٧٢م.

وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا. .»[٥٧].

هذه هي الضوابط التى نرى أنه يجب مراعاتها، سواء عند تحقيق ذلك الفرض أو عند التسليم به.

لأنه أيا كان الفرض في التوراة التي بين أيدينا الآن، فإنها تظل، لاعتبارات علمية ودينية، لها صلة ما بالوحي، بصرف النظر عن عجزنا عن تعيين هذه الصلة أو مداها.

وبعـــد

فهذا هو الفرض الذى أقدمه في التوراة التي بين أيدينا الآن.
وإنى إذ أقرر في ختام هذا البحث، أن هذا الفرض لم يكن ثمرة لفكر محض، أو لقراءة لاجتهادات علماء الأديان وبحوثهم، وإنما هو بالدرجة الأولى ثمرة لاجتهاد في فهم نصوص أسفار الكتاب المقدس نفسها وتحليلها، فهي التي أوحت لي بهذا الفرض الذى أضعه بين يدى الباحثين للتحليل والنقد والمناقشة.

رجاء أن يتحول بمزيد من البحث والتحقيق، مني أو من غيري إلى نظرية علمية مقبولة.

وإذا لم يكن في طرح هذا الفرض إلا إثارة فضول العلماء والباحثين والاستئثار بشيء من اهتمامهم، فيكفيني هذا عوضا وجزاء عن الجهد الذي بذلته فيه، وتحقيقا للغرض الذي توخيته من هذا البحث الذي أرجو أن يكون قد وضع لبنة صالحة للبناء فوقها.

ولله الحمد والمنة أولا وأخيرا، فهو المحيط علما بالأولين والآخرين، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

---

٥٧ ـ كتاب الاعتصام بالنسة جـ١٣ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤

المراجـــــع

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ الكتاب المقدس
دار الكتاب المقدس ـ القاهرة سنة ١٩٧٠.
٣ ـ إظهار الحق
رحمة الله الهندى ـ تحقيق عمر دسوقى ـ مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء.
٤ ـ تاريخ ايران
حسن بيرينا ـ ترجمة محمد نور الدين ـ الانجلو المصرية سنة ١٩٧٩م.
٥ ـ تاريخ بابل
مارغريت روثن ـ ترجمة زينة عازار ـ منشورات عويدات بيروت طـ ٢ سنة ١٩٨٤م.
٦ ـ التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول
ابن الأثير ـ تحقيق عبد القادر الأرناؤوطى ـ دار البيان بيروت ـ سنة ١٩٧٢م.
٧ ـ التلمود ـ تاريخه وتعاليمه.
ظفر الله خان ـ دار النفائس طـ ٢ سنة ١٩٧٢م.
٨ ـ التوراة ـ تاريخها وغاياتها.
ترجمة سهيل ديب ـ دار النفائس بيروت طـ١ سنة ١٩٧٢م.
٩ ـ الديانة عند البابليين.
جان يوتيور ـ ترجمة وليد الجادر ـ جامعة بغداد سنة ١٩٧٠م.
١٠ ـ رسالة في اللاهوت والسياسة.
اسبنوزا ـ ترجمة حسن حنفى طـ ٢ دار الكتب للطباعة والنشر ـ بيروت سنة ١٩٨١م.
١١ ـ فتح الباري شرح صحيح البخارى ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٢ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل.
الإمام ابن حزم ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.
١٣ ـ الفكر الديني الإسرائيلى ـ أطواره ومذاهبه.
حسن ظاظا ـ مكتبة سعيد رأفت ـ الاسكندرية سنة ١٩٧٥م.

١٤ ـ قصة الحضارة.
ول ديورانت ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر طـ٣ القاهرة سنة ١٩٦٥م.
١٥ ـ الكتاب المقدس في الميزان.
ادوار ج. يونج ـ ترجمة الباس مقار ـ دار الثقافة المسيحية طـ١ القاهرة
١٦ ـ مخطوطات البحر الميت ـ اللفائف الكنانية والنحاسية والنورانية.
حسين عمر حماده ـ دار منارات للنشر ـ عمان ١٩٨٢م.
١٧ ـ المسيحية، نشأتها وتطورها.
شارل جنيير ـ ترجمة الامام عبد الحليم محمود ـ منشورات المكتبة العصرية ـ بيروت.
١٨ ـ المسند
أحمد بن حنبل ـ تحقيق أحمد محمد شاكر طـ٤، دار المعارف سنة ١٩٧٢.
١٩ ـ موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية.
زكي شنودة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٣م.

المجلة التربوية

تصدر عن كلية التربية - جامعة الكويت

مجلة فصلية ، تخصصية ، محكّمة

رئيس هيئة التحرير

د. عبد الرحمن أحمد الأحمد

تنشر البحوث التربوية، ومراجعات الكتب التربوية الحديثة ومحاضر الحوار التربوي، والتقارير عن المؤتمرات التربوية

* **تقبل البحوث باللغتين العربية والانجليزية**

* **تنشر لأساتذة التربية والمختصين فيها من مختلف الأقطار العربية والدول الأجنبية**

الاشتراكات :

للأفراد في الكويت	٢ د.ك	وللطلاب	١ د.ك
للأفراد في الوطن العربي	٢,٥ د.ك	وللطلاب	١,٥ د.ك
للأفراد في الدول الأخرى	١٥ دولاراً أمريكياً بالبريد الجوي		
للهيئات والمؤسسات	١٢ د.ك وفي الخارج ٤٠ دولاراً أمريكاً.		

توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي :

المجلة التربوية - ص.ب ١٣٢٨١ كيفان - الرمز البريدي **71953** الكويت.

هاتف : ٤٨٣٠٢٦٨